بحث

نحن والحضارة الغربية

مركز بحوث للدراسات
كتاب القضايا المعاصرة

الفهرس

أولاً: التعريفات..... ٤

الحضارة -المدنية..... ٤
الحضارة والمدنية في الفكر الإسلامي:..... ٥
اتجاه ترجمة مفهوم "Civilization" إلى اللفظ "مدنية":..... ٦
اتجاه ترجمة "Civilization" إلى اللفظ العربي "حضارة":..... ٧
الثقافة :..... ٧
بين الحضارة والثقافة:..... ٨

ثانياً: تأثر الثقافة والحضارة بالدين..... ١٠

ثالثاً: تبادل الثقافات وحوار الحضارات..... ١٣

أ- تبادل الثقافات:..... ١٣
ب- نبذة في تاريخ الأفكار:..... ١٤
ج- حوار الحضارات شروطه ونطاقه:..... ١٦
شروط الحوار الحضاري..... ١٦
الدين والحوار الحضاري:..... ١٨

رابعا: نظرية صدام الحضارات..... ١٨

أولا: الترغيب بالعولمة وأدلجة الفكر الغربي:..... ١٨
ثانيا: الترهيب بصدام الحضارات:..... ٢١

خامسا: موقفنا من الحضارة الغربية..... ٢١

خلفيتنا الحضارية:..... ٢١
أزمة الحضارة الغربية:..... ٢٣
أ – الأدوات الاتصالية:..... ٢٣
ب – الأدوات الاقتصادية:..... ٢٤
جـ- الأدوات الاجتماعية:..... ٢٥
د. الأدوات المعلوماتية:..... ٢٥
استكبار الغرب وقابليتنا للاستلاب!..... ٢٦
موقفنا من الفكر الغربي (تأصيل قرآني):..... ٢٩

ومن هذه الحقائق الاجتماعية:..... ٢٩
التعايش الحضاري:..... ٣١

سادسا: الإسلام هو البديل..... ٣١

معايير التقوى في الحضارات..... ٣١
الغرب: مادية وفردية:..... ٣٨
الهوية الحضارية..... ٣٩
أبعاد الهوية الحضارية:..... ٤١
واجب أمتنا الحضاري:..... ٤٢

أولاً: التعريفات

الحضارة –المدنية:

لعلَّ من أوائل من استخدم هذا المصطلح في العربية (ابن خلدون) حيث أطلقه في مقابل البداوة، ووصفها بأنها: « تفنُّن في التّرف وإحكام الصنائع ».

وقد استخدم في مقابلها بالإنجليزية كلمة (Civilization)، والتي يعود أصلها إلى عدة جذور في اللغة اللاتينية؛ (Civilties) بمعنى مدنية، و (Civis) أي ساكن المدينة، و (Cities) وهو ما يُعرف به المواطن الروماني المتعالي على البربري. وهو قريب من الاشتقاق العربي للكلمة.

جاء في تعريف مجمع اللغة العربية بالقاهرة: (الحضارة: الإقامة في الحضر، قال القطامي:

ومن تكن الحضارة أعجبته.....فأي رجال بادية ترانا ؟!

والحضارة: ضد البداوة، وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني، و: مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر[١].

ولم يُتداول الاشتقاق (Civilization) حتى القرن الثامن عشر، حين عرّفه (دي ميرابو) في كتابه (مقال في الحضارة) باعتباره رقة طباع شعب ما، وعمرانه ومعارفه المنتشرة بحيث يراعي الفائدة العلمية العامة.

ويبدو أنَّ ما عناه غالبية مَنْ استخدموا الكلمة لأول مرة هو مزيج من الصفات الروحية والخلقية التي تحقَّقت على الأقل بصورة جزئية في حياة البشر في المجتمع الأوربي.

وفي الواقع فإنَّ اشتقاق لفظ (Civilization) من مفهوم (Cities) بمعنى (مدينة) قد طرح ظلاله على دلالات اللفظ الأول؛ فاستنادًا إلى تقسيم (لامبادر) مرت (المدينة) بثلاث مراحل في أوروبا:

١- **مرحلة المدينة ما قبل الصناعية:** ظهرت المدينة في أوروبا منذ عهد الإغريق، وكانت عبارة عن وحدة سياسية متكاملة لها حكومة مستقلة ونظام سياسي خاص، ومع دخول المسيحية في أوروبا تمركزت المدينة الأوروبية حول الكاتدرائية، خصوصًا في ظل تدهور وظيفة المدينة في الإدارة المدنية، ومع بداية الحروب الإسلامية المسيحية اتخذت المدن الأوروبية الطابع العسكري التجاري بجانب الطابع الديني، ولاحقًا تراجع دور المدينة وتدنى مستوى المعيشة بها لتدخل العصور المظلمة.

---

(١) المعجم الوسيط ١٨١/١

٢- **مرحلة المدينة الصناعية:** كنتاج لظهور الثورة الصناعية اتسعت المدن الأوروبية، وتمركز حولها عدد كبير من العمال والمنظمين بعد انتقالهم من الريف، وتحولت المدينة إلى موطن لاقتصاد السوق والسلطة السياسية متجهة نحو بلورة تاريخ العالم في تاريخ المدينة.

٣-**مرحلة المتروبوليتان:** هي مرحلة التطور للمدينة بعد التوسع الرأسمالي والتطور التكنولوجي وظهور شركات عابرة القارات والمنظمات الدولية، حيث ظهرت مراكز عالمية تمثل بؤرًا تتشابك حولها مدن مختلفة ومتباعدة المكان، غير أنها ترتبط "بالمدينة - الأم" برباط وثيق.

وقياسًا على ذلك تجيء التعريفات لمفهوم "Civilization"، فمثلا يعرّفه(وول ديورانت) بأنه "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي، ويتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون". وقريباً منه عرّفها (دي ميرابو) في كتابه "مقال في الحضارة" بأنها: " رقّة طباع شعب ما، وعمرانه ومعارفه المنتشرة بحيث يراعي الفائدة العلمية العامة". فرقة الطباع من عناصر الثقافة، لكنّ التعريف منصب بالجملة على الجانب المادي. ولم يمنع ذلك حدوث تداخل كبير في تناول الفكر الأوروبي لمفهوم "Civilization"، فهناك من جعل المفهوم مرادفًا لمفهوم الثقافة، وهناك من جعله قاصرًا على نواحي التقدم المادي مثل أصحاب الفكر الألماني، وهناك من جعله شاملاً لكل أبعاد التقدم مثل المفكرين الفرنسيين.

والملاحظ أنّ جوهر المفهوم اتجه نحو تلخيص تطور نمط الحياة الأوروبي بكل أبعاده باعتباره المجتمع الأكثر رقيًا أو هو قمة التطور البشري، وقد انعكس ذلك على التقسيمات المقترحة لمراحل التطور البشري التي غالبًا ما تسير في حركة أحادية للتاريخ متجهة نحو النموذج الأوروبي في التطور الصناعي.[١]

الحضارة والمدنية في الفكر الإسلامي:

اهتم المفكرون المعاصرون قاطبة بإبراز هذه المصطلحات التي لم تكن شائعة الاستخدام، ولعلّ سر اكتساب هذا المصطلح لقيمته باعتباره الهدف الأسمى في تطور المجتمعات الإنسانية، حتى بدا المقابل الوصفي للهمجية والتخلف والبدائية! وكنا قدمنا أنّ العلامة (ابن خلدون) - مؤسس علم العمران البشري- من أوائل من استخدم كلمة "الحضارة" في الثقافة العربية، غير أنّ هذا الاصطلاح لم يكن متداولاً في الأوساط العربية والإسلامية إلى بدايات القرن العشرين، ومع دخول الاستعمار الأوروبي إلى الدول العربية، انتقل لفظ "Civilization" إلى القاموس العربي، وقد حدث اضطراب واضح في المفاهيم لعدم وضوح تعريفات ألفاظ: "ثقافة" و"حضارة" و"مدنية" خاصة مع وجود

(١) الحضارة... المدنية (اختلاف الدلالات باختلاف الحضارات) د. نصر محمد عارف

المفاهيم الثلاثة في اللغة العربية، على حين لا يوجد سوى مفهومين في اللغة الإنجليزية، مما أدى إلى انقسام اتجاهات ترجمة المصطلح إلى اتجاهين:

اتجاه ترجمة مفهوم *"Civilization"* إلى اللفظ "مدنية":

على الرغم من عدم شيوع هذه الترجمة لمفهوم "Civilization" إلا أنها أكثر دقة في اختيار اللفظ العربي، وقد بدأ هذا الاتجاه منذ أوائل القرن التاسع عشر، حيث تُرجم في عهد (محمد علي باشا) كتاب "إتحاف الملوك الألباب بسلوك التمدن في أوروبا"، كما استخدم(رفاعة الطهطاوي) في كتابه "مناهج الألباب المصرية" مفهوم التمدن في التعبير عن مضمون المفهوم الأوروبي ومشيرًا لوجود بُعد التمدن في الدين والشريعة.

وظل هذا الاستخدام لمفهوم المدنية سائدًا حتى وقت قريب وبالدلالات والمعاني نفسها التي تمثل بها مفهوم "Civilization"، فقد استخدم المفهوم عام ١٩٣٦م على أنه "حالة من الثقافة الاجتماعية تمتاز بارتقاء نسبي في الفنون والعلوم وتدبير الملك"، وكذلك أطلق عام ١٩٥٧م على الظواهر المادية في حياة المجتمع مقابل إطلاق لفظ الحضارة على "Culture"، قاصدًا الظواهر الثقافية والمعنوية في هذه الحياة، حيث المدنية تنقل وتورث، بينما الحضارة "Culture" إنتاج مستقل يصعب اقتباسها ونشرها.

ويختلف الباحثون حول تحديد الجذر اللغوي لكلمة "المدنية" فيرجعها البعض إلى "مدن" بمعنى أقام في المكان، ويرجعها آخرون إلى "دان" وهي جذر مفهوم الدين وتعني خضع وأطاع، و أيًّا كان مصدرها فقد اقترن اللفظ بتأسيس الدولة الإسلامية، وارتبط بمفهوم الدين بما يعنيه من دلالات الطاعة والخضوع والسياسة، ولقد ارتبطت المدينة في عهد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم- بنظام مجتمعي حياتي وتنظيمي جديد في الجزيرة العربية ارتكز على القيم الإسلامية والمبادئ التنظيمية المنبثقة عنها.

وعلى خلاف التجربة الغربية، فالمدينة في الخبرة الإسلامية هي نتيجة لوجود قيم التهذيب والعلاقات الاجتماعية والسياسية في الدين الإسلامي، وليست سببًا فيها.

ومن ناحية ثانية، فقد بدأت المدينة في الخبرة الإسلامية مما انتهت عليه المدينة في التجربة الأوروبية "مرحلة المتروبوليتان"، (أي المدينة التي تتبعها مدن أخرى وترتبط بها) فقد كانت المدن الإسلامية جميعها حواضر راقية تتبعها مئات المدن الأخرى المنتشرة في الإمبراطورية الإسلامية، على سبيل المثال: كانت المدينة المنورة ثم الكوفة وقرطبة والآستانة مراكز للإمبراطورية الإسلامية على مر تاريخها.

ومن ناحية ثالثة، إذا كان تطور المدينة الأوروبية المعاصرة يعد دليلاً على الرقي الإنساني - طبقًا للفكر الغربي- فإنّ (ابن خلدون) اعتبر ذات الصورة من رفاهية العيش والاستهلاك طورًا تحدث فيه

اختلالات في تطبيق منظومة القيم الإسلامية والضوابط التي تحدد حدود الإنسان، ومنهج تفاعله في الكون، وبالتالي تنافي مفهوم استخلاف الإنسان في الأرض، واعتبر أنّ مؤشر ذلك هو سكنى الحضر والمدن - مرحلة الحضارة-، وبالتالي فهي لديه نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير.

اتجاه ترجمة *"Civilization"* إلى اللفظ العربي "حضارة":

يُعد هذا الاتجاه هو الأكثر شيوعًا في الكتابات العربية ابتداء من الربع الثاني من القرن العشرين، وبملاحظة التعريفات المقدمة لمفهوم "الحضارة" نلحظ أنها هي نفسها التعريفات التي وضعت إزاء "المدنية"، فالخلاف لفظي والمحتوى واحد وهو المضمون الأوروبي. فعادة، يربط مفهوم الحضارة إمّا بالوسائل التكنولوجية الحديثة، أو بالعلوم والمعارف والفنون السائدة في أوروبا، أي خلاصة التطور الأوروبي الحالي. وينطلق هؤلاء من أنّ الحضارة هي جملة الظواهر الاجتماعية ذات الطابع المادي والعلمي والفني الموجود في المجتمع، وأنها تمثل المرحلة الراقية في التطور الإنساني، بالنظر إلى تطور المفهوم في الكتابات العربية في العلوم الاجتماعية، وقد لوحظ أنها تخرج عن ذات الدلالات للمفهوم في الفكر الأوروبي؛ الذي يوحي بعالمية العلم والمنهج والمفاهيم وبالتالي الحضارة.

الثقافة :

الثقافة لغة: من لفظة (ثقف) ويُطلق على الحذق و الفهم و الإدراك فيُقال:(ثقف الشيء ثقفاً) أي فهمه و حذقه، و يُقال: (هو غلام ثقف) أي ذو فطنة و ذكاء، كما يطلق على معنى تسوية الشيء، وتقويم اعوجاجه، تقول: ثقفتَ الرُّمح، أو القوس أو أي شيء معوج، إذا قوّمتَه، وسويته من اعوجاجه، فيغدو مثقّفًا مُقوّمًا.

ولا علاقة للمعاني اللغوية السابقة بالمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة، إذ استخدمت كمرادف لمصطلح شاع في أوربا، وهو "Culture"، وقد اشتق من حرث الأرض وزراعتها، وقد ظلت اللفظة مقترنة بهذا المعنى طوال العصرين اليوناني والروماني. وفي فترة لاحقة استخدمها المفكر اليوناني "شيشرون" مجازًا بالدلالات نفسها، حين أطلق على الفلسفة "Mentis Culture" أي زراعة العقل وتنميته. وقد نقل هذا المصطلح إلى العربية (سلامة موسى) - في مصر- فكان أول من أفشى لفظ (ثقافة) مقابل "Culture". وعرّف الثقافة بأنها: " المعارف والعلوم والآداب والفنون التي يتعلّمها الناس ويتثقفون بها" (أي الذهنيات)، وتأثر بالمدرسة الألمانية، فميَّز بين الثقافة والحضارة، فجعل الثقافة "Culture" متعلقة بالأمور الذهنية، بينما الحضارة "Civilization" تتعلق بالأمور المادية.

وهذا الفهم لكلمة الثقافة مقتبس باقتضاب من تعريف الغربيين لمرادفها "Culture"، حيث عرّفها (إدوارد تيلور) (١٨٧١م) في كتابه "Primitive culture"، بأنها "ذلك الكل المركب الذي يشمل

المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بصفته عضوًا في مجتمع".

وعرّفها (كلايد كلوكهون) بأنها: "مجموعة طرائق الحياة لدى شعب معيّن في الميراث الاجتماعي التي يحصل عليها الفرد من مجموعته التي يعيش فيها"، فاقتصر على بعض التطبيقات الاجتماعية.

وأخيراً عرّفها (رينيه دوبو) في كتابه "إنسانية الإنسان" بأنها: "كل شيء مكتسب بالتجربة، وينتقل من جيل إلى آخر، وهي ردود فعل الإنسان على البيئة المادية والبشرية على شكل نماذج سلوكية وعلاقات عاطفية وتنمية حاجات نافعة"

ونسجل هنا ملحوظتين: الأولى أنّ هذا المصطلح يتحدث عن إبداع إنساني، ويجعل الدين أحد مكوناته، وهذا ينسجم مع مأثور الفكر الغربي الذي يجعل الأديان من صنع الإنسان.

والأخرى أنّ هذا المصطلح تطور منه مصطلح (مثقف) العصري الذي ينظر للمستقبل ويتابع علوم الواقع، في مقابل الفقيه أو الأثري الذي يقبع في زوايا التاريخ والتراث.

وهكذا أضحى مصطلح الثقافة دالاً على مكونات التالية: (الدين والفلسفة – اللغة والآداب – العادات والتقاليد – التاريخ – الفنون – العلوم الإنسانية بعامة).

بين الحضارة والثقافة:

مثلما رأينا أنّ ثمة اختلاف بين الحضارة والمدنية، فهناك اختلافات اصطلاحية أيضا بين الحضارة والثقافة، ولأنّ هذه الكلمات العربية أصبحت في استعمالنا الحديث رموزاً تدل على المعاني والمفهومات نفسها التي تدل عليها الكلمات الغربية التي جعلناها ترجمة لها، فلننظر في تلك المعاني والمفهومات كما هي عند أهلها. وأنسب ما نبدأ به هو الأمريكي (هنتنجتون) أول من أشاع تعبير (صراع الحضارات) في مقال مشهور نشر في صيف عام ١٩٩٣م في مجلة Affairs Foreign بهذا العنوان، ثم نُشر موسعاً في كتاب بالعنوان نفسه. ينقل (هنتنجتون) عن عدد كبير من العلماء الغربيين تعريفهم لما أطلقنا عليه كلمة الحضارةcivilization، والفرق بينها وبين ما نسميه ثقافة culture؛ فما الحضارة أو المدنية وما الثقافة؟

يمكن أن نلخِّص مجمل أقوال من نقل عنهم (هنتنجتون) في مفهوم الحضارة والثقافة فيما يلي:

يضع المفكرون الألمان حداً فاصلاً بين الحضارة والثقافة، فالحضارة عندهم تشمل التقنية وسائر العوامل المادية، أمّا الثقافة فتشمل قيم المجتمع ومُثُله العليا وخاصياته الفكرية والفنية والخلقية الكبرى. لكنّ سائر المفكرين الغربيين خالفوا الألمان في هذا؛ فهم يرون أنّ الحضارة والثقافة كليهما تشيران إلى منهاج حياة أمة من الناس، وأنّ الحضارة إنما هي الثقافة مكبرة، وأنّ كليهما يشمل القيم والمعايير والمؤسسات وطرائق التفكير السائدة في أمة من الناس، وأنّ الدين هو

أهم العناصر المكونة للحضارة، وأنّ الحضارة ليست متطابقة مع العِرْق؛ فأصحاب العرق الواحد قد ينتمون إلى حضارات مختلفة، كما أنّ الحضارة الواحدة - كالحضارة الإسلامية . قد تضم مجتمعات مختلفة الأعراق والألوان والأشكال. والحضارة هي أوسع وحدة ثقافية؛ فأهل قريةٍ إيطاليّةٍ مثلاً قد يتميزون ثقافياً عن قرية إيطالية أخرى، لكنهم يشتركون في ثقافةٍ إيطاليةٍ تميزهم عن أهل القرى الألمانية. والألمان والإيطاليون ينتمون إلى ثقافة أوروبية تميزهم عن الجماعات الصينية والهندية. هذا الذي يجمع الأوروبيين هو حضارتهم التي تميزهم عن الحضارات الصينية والهندية. فالحضارة هي أعلى تجمُّع ثقافي للناس، وأوسع مستوى للهوية الثقافية لهم، وليس فوق الانتماء الحضاري للناس إلا انتماؤهم إلى الجنس البشري(١).

في إطار الفكر الإسلامي وجدنا قريبا من هذا التباين في تحديد المصطلحات أيضا، فأستاذنا الدكتور مصطفى السباعي يستخدم الحضارة بمعناها الشمولي فيرى أنّ كل جهد إنساني تقدمي يضيف للإنسانية فهو حضارة، سواء كان جهداً مادياً أو فكرياً وأخلاقياً أو غير ذلك من ألوان النشاط، حيث يقول: " الحضارة - بكل بساطة - بذل المجهود من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم، من أي نوع كان، في أحوال الإنسان، وأحوال العالم الواقعي". وكذا عرفها الدكتور (محمد بن عبد الكريم) بأنها: « ظاهرة اجتماعية، تتبلور في نظم محكمة، وآثار ماثلة » (أي معمارية). ومثله(محمد المبارك) في كتابه "الفكر الإسلامي الحديث"، حيث يقول: "الحضارة مجموعة المعارف العلمية والتشاريع والنظم والعادات والآداب التي تمثل الحالة الفكرية والاقتصادية والخلقية والسياسية والفنية وسائر مظاهر الحياة المادية والمعنوية". ومنه تعريف (محمد فريد عبد الخالق): (الحضارة حصيلة ديناميكية للجهد الدائب لمجتمع بشري، لبناء مستقبل أفضل، يحقق ما ينشده المجتمع من مُثل أعلى).

وأمّا(المودودي) فإنَّه يجعل الحضارة بمعنى الثقافة فيقول: (الحضارة نظام متكامل يشمل كل ما للإنسان من أفكار وآراء وأعمال وأخلاق في حياته الفردية أو العائلية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية). وهؤلاء جميعا رأوا أنّ اللفظ يستغرق كل الحضارات الإنسانية، فالحضارة عندهم تقبل الوصف بالشر والخير.

لكنّ بعض المفكرين المسلمين رأوا أنّ اسم الحضارة لا يصح أن يطلق إلا على حضارة الإسلام، ومنهم (مالك بن نبي)، حيث يقول: "الحضارة لا تظهر في أمة إلا في صورة وحي يهبط من السماء، ويكون للناس شرعة ومنهاجاً". لكنه تراجع عن هذا المعنى لاحقا، واعتبر المدنية الغربية بنتاجها الثقافي السيء حضارة، وكتب سلسلة كتبه تحت عنوان (مشكلات الحضارة).

---

(١) [Schuster, 1997, pp. 41 & Hintington, The Clash of Civilizations, Simon .Samuel P] -٤٣

وهناك من يستخدم مصطلح (مدنية) في مقابل (ثقافة) ويرى أنّ المدنية مختصة بالإنتاج المادي الذي تقدمه الأمم على الصعيد الإنساني، أمّا الثقافة فتعني الجانب الآخر، من تصورات وأفكار وسلوك وآداب وفنون وتقاليد وكل المعاني التي لا تدخل في الجانب المادي. كما يرى أن جناحي المدنية والثقافة يشكلان (الحضارة)، ومن هؤلاء (سيد قطب) الذي اعتبر أن الإسلام فقط هو الحضارة، والمجتمع الإسلامي فقط هو المجتمع المتحضر،كما في (المعالم) و(نحو مجتمع إسلامي)، وأمّا ما عداه فإنها مدنية فحسب، بل هي صورة من صور الجاهلية. وأكد هذا المعنى من بعده (محمد قطب) و(سعيد حوى)، ومثّل له (سعيد حوى) بجماعة من اللصوص أقاموا مدنية علمية عالية في إحدى المدائن، لكنها عارية عن الأخلاق والمقومات الثقافية، فكيف لمثل هذا المجتمع اللصوصي أنْ يوصف بأنه حضارة. فالحضارة في اصطلاح الشيخ (سعيد حوى) هي اجتماع الثقافة مع المدنية ضمن شروط معينة وظروف معينة[١]. وقد تبلور هذا التعريف في النصف الثاني من القرن العشرين.

ثانياً: تأثر الثقافة والحضارة بالدين

إذا كان الدين في المفهوم الكنسي يشكل عاملاً يسهل فصله عن الحياة، بحيث يستطيع المتدين المسيحي أنْ يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وإذا كان مع تلك القابلية للفصل العلماني، غير أن الدين يشكل أهم مكون من مكونات الحضارة كما يقول (هنتجتون)، فكيف يكون دور دين أراده الله منهج حياة، وشرعه شاملاً لكل مناحيها، وأمر عباده بأن يدخلوا في سلمه كافة، وجعله حاكماً على حياتهم العقدية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ونهاهم عن أن يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض، فما عسى تأثيره على الثقافة يكون؟!

لا ريب أنّ جميع مكونات الثقافة تنعكس فيها خصائص الدين الذي يسري فيها، فأهمية الدين بالنسبة للثقافة كأهميته بالنسبة للإنسان. ونعرض فيما يلي لصور تبرز أثر الدين في الثقافة والحضارة:

- قضية الخلق الأولى كما وردت في القرآن والكتاب المقدس، أثرت في معطياتها المختلفة على الحضارتين الإسلامية والغربية (قديما وحديثا)!

فالسبب الذي أبعد فيه آدم وحواء من الجنة كان أكلهما من شجرة المعرفة، فبقي هاجس العداء بين العلم والدين قائماً بينهم على تلك الخلفية حتى أثمر علمانية أصلها من أصلها منهم بناء على وصية المسيح في إحدى رسائله: (دع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر)، فانظر أثر الدين في هذه

---

(١) منطلقات إسلامية لحضارة عالمية جديدة للشيخ سعيد حوى ضمن بحوث الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم ٦٧١/٢

الحضارة وما أفرز، وانظر إلى مقابله الإسلامي وكيف كان الدين سببا في انسجام واتساق، حيث أنه ورد في قصة الخلق نفسها أن الذي كرّم لأجله آدم عليه السلام، حتى سجد له الملائكة، أنه تعلم!

﴿وَعَلَّمَ آَدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا ...﴾ [البقرة:٣١-٣٤] ومن هنا كان فقهاء الأمة في عصر نهضتها هم مفكروها وصناع الحياة فيها، حتى أن أستاذ الفلاسفة المسلمين هو الفقيه المجتهد المالكي صاحب مدونة بداية المجتهد والأصولي الأريب والقاضي الفطن.

ولم تسمح البيئة الإسلامية في عصر نهضتها ببروز المفكرين والمبدعين إلا وهم أكثر فقها ويقينا في شؤون الدين منهم في شؤون الفلسفة، لأنّ رسالة ﴿اقْرَأْ﴾ و ﴿قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ لم تكن تحول بين التدين والعلم تحت أي ذريعة.

في قصة الخلق أيضا فلسفة مختلفة باختلاف الكتابين لدى المسلمين والغرب المسيحي، وتتعلق بعصيان آدم وزوجه وأكلهما من الشجرة المحرمة! ففي الكتاب المقدس أنّ حواء هي التي زينت لآدم معصيته، فكان من أثر ذلك أن اتخذها الفكر المسيحي الأول شيطاناً رجيماً، وبعد أن تملكت الحسرة آدم، بعد فقد ما فقد بسبب هذه المرأة المشؤومة، كان لا بدّ من علاقة متوترة قائمة على الصراع، تغذى بقيمة البحث عن الحقوق وأخذها تأثراً بالفلسفة الغربية القائمة على فردانية الإنسان ابتداء!

أمّا القصة في القرآن فتجعل الهبوط أمر قدري أزلي لأنّ الله سبحانه خلقهما للأرض ابتداء: قال ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، وإهباطهما كان بخطيئة ارتكباها معا، ويتحملان إثمها معا، ثم يتوبا معا، فيهبطا معا، لا إثم لواحد منهما على الآخر ولا مبرر لكل ذلك الصراع أن يستمر بينهما! ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآَتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٠-٢٣]. ومن هنا فما ثمة صراع حقوقي بين الرجل والمرأة متأصل في طرحنا الفكري.

بون شاسع بين ثقافة: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨] وبين ثقافة الصراع الشامل، صراع بين السلطة والمعارضة على الحقوق السياسية، وصراع بين الرجل والمرأة على الحقوق الزوجية، وصراع بين الدين والعلم في الحياة العامة!

إنّ ثقافة الصراع والتدمير والفتك ضربة لازب للثقافة الغربية التي نشأت في شقها الثقافي مؤسسة على الفكر الهلليني اليوناني الوثني، ثم التوراتي فالإنجيلي الذين يكرسان حياة الصراع، الصراع بين الآلهة الرومانية والبشر (على النار المقدسة الذي سرقها أحد آلهة اليونان من رب الأرباب، ثم تحدته)، ثم الصراع بين الإله وآدم على شجرة معرفة الخير والشر، وكذا مصارعة يعقوب والإله (كما في التوراة)، ثم يستمر الصراع في العهد الجديد، ويزعم الفكر النصراني المحرف أنهم هزموا الإله بصلبه.

ثم يستمر تكريس الصراع مع المخلوقات من البشر والحيوانات في نصوص كتابية كثيرة تدعو لقتل النساء والأطفال والحيوان، لذا لا عجب لهذه الحضارة أن تقيم حربين عالميتين، وتعد لثالثة، وفيما بينهما تفتك بكل من تقدر عليه...

قارن هذا بثقافة السلم الإسلامية، سلم مع الكون فلا عدوان على البيئة ولا تعدٍ على الطبيعة، ولا أذى لبهيمة الأنعام وذر الحشرات وأخضر النبات، (**لا تقتلوا امرأة ولا طفلا، لا تقطعوا شجرة**)، (**دخلت امرأة النار في هرة عذبتها**)، وسلم مع قوانين الفطرة فلا شذوذ ولا مجاهرة، وسلم اجتماعي داخل الأسرة، فلهن مثل الذي عليهن، والنساء شقائق الرجال، ﴿**وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ**﴾ [النساء:٣٢]، و ﴿**بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ**﴾ [آل عمران:١٩٥]. وسلم مع الطوائف الدينية الأخرى في إطار التعايش الوطني، صوامعهم وكنائسهم وأديرتهم محترمة، ورهبانهم مرعيون، وهم آمنون على أنفسهم بأمان الله ورسوله، ومن آذاهم فقد آذاه صلى الله عليه وآله وسلم، أين هذا مما جرى في محاكم التفتيش القديمة والحديثة - في البوسنة وكوسوفا-؟!

سلم الإسلام مع الحاكم فلا صراع للصراع، ولا معارضة للمعارضة، بل دعوة للأمة أن تسمع وتطيع لمن تولى أمرها دون خروج ولا فتنة ما التزم بعقده مع الله والأمة.

سلم الإسلام مع العقل فهو مناط التكليف ومستودع الفقه، ولا تعارض بين صريح المنقول وصحيح المعقول.

وسلمه للأمة كلها: (**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**)

فهذا هو سلام الله على المسلم يتبادله في صلواته وجلواته وخلواته عشرات المرات كل يوم وليلة.. وهذا هو سلم الإسلام الذي دعى إليه سبحانه: ﴿**ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾ [البقرة:٢٠٨].

- الفن في الحضارة الإسلامية أثمر فناً معمارياً راقياً ظهر في مساجد المسلمين وزخرفتها، بينما الفن الغربي بموروثاته اليونانية أبدع في صناعة التماثيل والصلبان بأنواعها.

كذلك الشعر في مجتمعاتنا الإسلامية أثمر أغراضا حضارية لم تكن معهودة في الحقبة الجاهلية، ولا هي معهودة في شعر التشكيك والبعثرة والضياع المعاصر.

- أيضا (موضات) الملابس التي انتشرت في بلاد المسلمين تأثرت بالمفهوم الديني، مثلاً الكوفية الباكستانية مفتوحة من الأمام تلبية لحكم السجود على الجبهة عند الحنفية، والبنطال الكردي والتركي العريض هو انعكاس للفهم الإسلامي للملابس. بينما أثمر الفهم المنحرف للدين المسيحي الذي ضمن الغفران لمن آمن إيمانا باهتا بالمسيح المخلص الذي صلب تكفيراً للخطاة عن خطاياهم، أثمر هذا التسطيح والاستخفاف بالمعصية إباحية منفلتة تستمد من قصص الكتاب المقدس، وبعض ما جرى مع أكارم الأنبياء ضلالا فوق ضلال، حتى وصلنا للفلسفات الليبرالية المطورة والوجودية الهيمية! الغربية أثر من آثار.

ثالثاً: تبادل الثقافات وحوار الحضارات

أ- تبادل الثقافات:

المعايشة بين الشعوب والترجمة كانتا الوسيلتين التي تنتقل فيهما الحضارات وتتسرب إلى الشعوب الأخرى، وفي هذا الصدد تأثر المسلمون بدخول الفرس والروم بالإسلام، سلباً وإيجاباً، (الدواوين – الخندق – اللحن في اللغة واستعمال المولّد من الألفاظ – حياة القصور والترف). ونذكر هنا بإنكار الخليفة عمر رضي الله عنه على أبي عبيدة مما رآه عليه من ثياب رغيدة يتصنع فيها للروم. وعن طريق المعايشة انتقل الإسلام للمعمورة حين عاش المسلمون بين ظهراني تلك الأمم فدخلت في الإسلام. وحين احتل التتار المشرق الإسلامي تأثروا بثقافة المسلمين، فدخلوا في الإسلام نتيجة لهذه المعايشة.

وكان أكبر تبادل ثقافي هو ذاك الذي جرى بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، حيث نقل المسلمون العلم التجريبي للغرب، فكان المعلم الأكبر للحضارة الغربية. كما تأثرت قوانينهم بالفقه الإسلامي، والمالكي خصوصاً، بحكم التقارب بين الغرب الإسلامي المالكي وأوربا. وكان المسلمون قد أفادوا من حركة الترجمة للكتب اليونانية العلمية التي انتشرت في العصر الأموي ثم العباسي، كما تأثروا سلباً بما ترجموه معها من كتب الفلسفة اليونانية.

ثم بدأ نقل الثقافة بالاتجاه الآخر. يقول (لوبون) في كتابه "حضارة العرب": "إنّ أوربا مَدينة للعرب بحضارتها، وقد ظلت كتب العرب المترجمة إلى اللغات الأوربية، ولا سيما الكتب العلمية مصدراً وحيداً للتدريس في جامعات أوربا خمسة قرون". ومن ذلك أنّ كتاب "الحاوي" للرازي (٢٠ مجلداً) يجمع موسوعة من المعلومات الطبية، وبقي المرجع الوحيد في جامعات أوربا حتى القرن

السابع عشر. وقد نُقلت آلاف الكتب الإسلامية إلى الغرب خلال الحروب الصليبية أو من الأندلس أو من جزيرة صقلية التي حكمها المسلمون قرابة قرنين من الزمان (من ٨٧٨م – ١٠٩٢ م،٤٨٤هـ)، فكانت هذه هي الجسور الثلاثة التي عبرت عليها الحضارة الإسلامية إلى الغرب.

ونمثل كنموذج لتبادل الثقافة، بتأثر المفكر الغربي (جان روسو) بابن خلدون في نظريته العقد الاجتماعي، وكذا تأثره بالغزالي في كتابه "أيها الولد"، والذي تأثر به روسو تأثراً بالغاً في كتابه إلى ابنه، والذي أسماه باسمه "إميل".

وفيما يلي بعض أقوال المؤرخين بهذا الصدد:

يقول (روجر هوفيدن): "يظهر أنّ أخلاق صلاح الدين في عصره وحياته التي انطوت على البطولة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيراً سحرياً خاصاً، حتى أن نفراً من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوى انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا أقوامهم، وانضموا للمسلمين".

يقول الدكتور (تارا) في كتابه (تأثير الإسلام على حضارة الهند): "إنّ للعقلية الإسلامية والشريعة الإسلامية تأثيراً في أخلاق الأمم. اجتماعياً وتشريعياً في أوربا النصرانية، وفي الهند الوثنية بعد الفتح الإسلامي، تراه ونلمسه في الاتجاه إلى التوحيد ونزعات الاحترام للمرأة وحقوقها، والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر".

ويقول العالم الإيطالي (ألدوملي) في كتابه "العلم عند العرب وأثره في تطوير العلم العالمي": "إذا كان سلطان المسلمين في صقلية قد اتسم بالتسامح إلى حد بعيد، كما هي العادة، فإنّ سلطان الملوك النورمانديين (أي في صقلية) لم يكن أقل من ذلك، على عكس ما جرت به عادة المسيحيين، ولقد كان هؤلاء الملوك الذين احتفظ قسم كبير من الأهلين في ظلهم بعقيدة الإسلام، ولاسيما روجر الثاني".

ب- نبذة في تاريخ الأفكار:

لماذا يزعمون دائما أنّ البداية في (اليونان)، والنهاية مع عصر النهضة ومتتالياته في حضارة الغرب (الأور . يكي)؟! لماذا دوماً يكون الأوائل: سقراط وأفلاطون وأرسطو وشيشرون، ومن ثم أوغستين وتوما الاكويني ومونتيسكيو وروسو وهوبز وجون لوك وبودان؟

أحقا كانت في اليونان البداية، ومن ثم في الغرب كانت النهاية؟ أولم يكن في تاريخ الفكر والحضارة غير هؤلاء!! بل هو تاريخ للحضارة أو للأفكار يخطه القوي باستبداده أو باعتداده، ويتابعه عليه الضعيف بهره وعجزه، فيرى كل شيء بدأ وانتهى هناك.

في تاريخ السياسة أو الدولة أو السلطة أو المشاركة لم تكن البداية في محاورات (سقراط) (٤٦٩ . ٣٩٩) ق.م، ولا في جمهورية أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧) ق.م، ولا في (السياسة) لأرسطو (٣٨٤-٣٢١) ق.م، وتقريرنا هذا لا يعني أن نغمط هؤلاء الرواد في تاريخ الفكر الإنساني حقهم، وأن نصغر من شأنهم، وإنما يعني أن قراءتنا لتاريخ الحضارة الإنسانية أرحب وأشمل، وأنّ من واجبنا في عصر حوار أو صراع الحضارات أن نجد بالبحث عن إسهامات أمتنا في حضارة إنسانية تراكمية، ليس من حق أحد أن يستأثر بها، أو يصادرها لمصلحة جنس أو عرق.

أيفيدنا أنْ نشير هنا إلى أنّ جملة من المصطلحات الفكرية والحضارية كانت عاريّة لدى القوم، استفادوها فيما استفادوا مع (ألف بائنا..) الذي لا يجحده إلا مكابر عنود، وأنّ لفظة (Nomos) التي تعني القوانين، والتي كانت المحط الأساسي لوصف (أرسطو) للدولة، إنما كانت بعض كلماتنا التي ثقفوها عندما جلسوا على موائدنا، فكلمة (الناموس) بجذرها السامي الواضح لتلمع دليلاً على مورد القوم ومصدرهم، قبل (أثينا) و(اسبرطة) ونتحدث هنا عن (٥٠٠) عام قبل الميلاد، كانت مدنيات ودول وحكومات وشرائع خُطت على الألواح، ونُقشت على الحجر.

قبل اليونان، كانت هناك مصر(أربعة آلاف سنة قبل الميلاد)، وكان هناك الكنعانيون والفينيقيون والألفباء، وحضارة بلاد الرافدين، و(حمورابي) الذي ترك خمساً وخمسين رسالة منقوشة على الحجر، مع(٢٨٢) مادة قانونية متوجة بحرص الملك على العدل بين الناس وذاك في (٢١٠٠) ق.م. وإذا عدنا إلى ألف سنة قبل الميلاد أي قبل المدرسة اليونانية بخمس مائة عام سمعنا ملكة سبأ تنادي ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢]

وبعد (أثينا) و(اسبرطة) و(روما) كانت هناك مكة والمدينة ثم كانت دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وكان هناك أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، والجاحظ والماوردي والجويني وابن سينا والفارابي والطرطوشي وابن تيمية وابن أبي الربيع وابن جماعة، وغيرهم كثير؛ كتبوا وأصّلوا وفصّلوا وكانوا في كل ما قدموه بين الأجر والأجرين، ولكنهم خلفوا رؤية تضاهي وتباهي لمن أراد أن يسترشد أو يستبين..

إنّ منصفا شدا قليلاً أو كثيراً من تاريخ الفكر أو تاريخ الحضارة، لا يستطيع أن يجحد علاقة رواد عصر النهضة الأوروبي بالفكر العربي الإسلامي، وفي جميع الميادين. كما أنّ أحداً لا يستطيع أن يتحدث عن جسر (أثيري) موهوم انتقلت عليه معطيات حضارة اليونان مع ما كان فيها من قصور البدايات، لتنجز للعالم حضارة يشار إليها اليوم بالبنان.

وهكذا فقد تعلم (بيكون) في مدارس الأندلس، واقتبس (دانتي) من الإسراء والمعراج كما من أبي العلاء المعري، وحذا (مكيافيللي) حذو (المرادي) (في الإشارة إلى أدب الإمارة)، وتعلق جان جاك روسو بالغزالي فحول (أيها الولد) إلى (إميل) وترجم نظرية (العقد السياسي) الإسلامية إلى العقد الاجتماعي.

إنّ الذي نريد أن نخلص إليه من هذه المقدمة جملة من الحقائق الأساسية:

. التأكيد على عالمية (الفكر) و(الحضارة) بشقيها المادي والمعنوي. وأنّ لكل أمة من الأمم إسهامها في بناء الحضارة الإنسانية، وبالتالي التمييز المطلق بين الاستفادة من المعطى (الحضاري) أو (الفكري) العام، وبين التبعية أو الانزلاق.

ج- حوار الحضارات شروطه ونطاقه[١]:

تردد لفظ الحوار في العقود الأخيرة من هذا القرن الميلادي، في محافل شتى، وصفت به أنواع من العلاقات متباينة، كان بعضها نافعاً وبعضها الآخر محاولة من القوي لفرض رأيه وثقافته، ونظرته إلى الكون والناس والأشياء.

ودعت منظمات عديدة " لحوار الثقافات " في الثمانينات من هذا القرن ثم انتهى هذا الحوار إلى أوراق في كتب نشرت عن لقاءاته، لكنها لم تثمر تغييراً ثقافياً حقيقاً ملموساً حتى الآن. وحين ترددت في أرجاء الكون الثقافية والسياسية صيحة الكاتب الأميركي (صاموئيل هنتنغتون) عن (صراع الحضارات) أو (صدامها) كان البديل، العاقل المحتمل، لها هو الحديث عن حوار الحضارات، والدعوة إليه، والعمل على إنجاحه، لتجنب البشرية ويلات الصراع، وللتحاشي أثار الصدام المؤلمة أو المدمرة.

وحوار الحضارات مطلب إسلامي عبّر عنه كثير من المفكرين الإسلاميين، بل ردوا به على تحليلات (صاموئيل هنتنغتون) الخطيرة والمخيفة. وكان من أبرز هؤلاء رئيس الجمهورية الإسلامية في إيران السيد (محمد خاتمي) في مقالاته الشهيرة عن هذا الموضوع.

شروط الحوار الحضاري

أولاً. الاعتراف بالآخر:

الاعتراف بالآخر وبحقه في هذا الوجود، وبخصوصيته التي لا يجوز لأحد أن يسعى إلى تغيرها، وبمقومات استمرار بقائه مغايراً ومتميزاً، وبحقه في المحافظة على هذه المقومات وتوريثها في أجياله المتعاقبة جيلاً بعد جيل.

فإذا كانت الحضارة مبنية على الدين، كأن يقال الحضارة المسيحية أو الحضارة اليهودية فإنّ اعترافنا بهذا الدين نفسه وبرسوله، وبما أنزل عليه من كتاب، يتضمن اعترافنا بالحضارة المنسوبة إليه، أو القائمة عليه، ولو كانت هذه النسبة إدعاءً محضاً. فإنّ التبعة في المخالفة للهدى الموحي أو تحريفه إنما تقع على المخالفين، أو المنحرفين، وما علينا من حسابهم من شيء. وإذا كانت الحضارة

---

(١) للدكتور محمد سليم العوا اقتباسا من الموسوعة الإسلامية (الإنترنت) –مختصرا-.

مبنية على أصل لا يستمد من الدين شرعيته أو وجوده، فإنّ المسلمين مأمورون بالتعرف عليها والنظر في أحوالها والاعتبار بما يقع لأصحابها من خير وشر: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآَخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:٢٠]، وفي القرآن الكريم جاء الأمر بالسير في الأرض مقروناً دائماً بالأمر بالنظر فيه للتدبر والإعتبار. قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:١٣٧]، وفي أوضح القرآن الكريم صراحة أنّ سبب اختلاف الخلق _ شعوباً وقبائل _ هو لتيسير التعارف بينهم، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]. والتعارف يقتضي تقارباً بين المتعارفين، وتسليماً متبادلاً باختلاف كل منهما عن الآخر، ولا يستمر الأمر بالتعارف مطاعاً إلاّ إذا استمر التغاير والإختلاف بين الناس المخاطبين بهذه الآية الكريمة . جميعاً . قائماً. فأبناء الحضارة الإسلامية، والداعون إلى مشروعها الإجتماعي في عصرنا، يسلمون بمقتضى هذا الشرط الأول من شروط نجاح حوار الحضارات، ولا يطلبون من أبناء الحضارات الأخرى إلاّ الآن يكون لهم الموقف نفسه، وإلاّ فإنّ الحوار سيصبح حديثاً من طرف واحد، أو محاولة كل طرف غزو الطرف الآخر ودحره، وهكذا يعيش العالم صراعاً وصداماً، ولا يعش حواراً ولا تعارفاً.

ثانياً. التبادل الحضاري:

وتحقيق ذلك بأنْ يكون لكل طرف من أطرافه حق قول رأيه وبيان موقفه من القضايا التي يجري الحوار حولها، مهما كان هذا الرأي أو الموقف مخالفاً لما يعتقده أو يفعله، أو يدعو إليه ويدافع عنه الآخرون.

والحضارات المتباينة الحية، تملك كل منها مقومات خاصة بها، ويراها أصحابها صواباً نافعاً، وقيمة الحوار بينها تبدو في تعرف أبناء كل منها على الأخرى كما يراها أصحابها، لا كما تراها أعين الغرباء عنها، رضاً كان ما تظهره هذه العين أم سخطاً، نقصاً كان أم كمالاً، جزئياً قاصراً كان أم كلياً شاملاً.

ثالثاً. الثقافة:

أنْ يكون محوره الثقافة التي تعبر عنها الحضارات المختلفة، والنشاط البشري الذي تتمثل فيه هذه الثقافة.

ومن معاني هذا الشرط وضروراته أنْ تستبعد من الحوار بين الحضارات موضوعات العلاقات السياسية، والتبادل الاقتصادي، والاختلاف الديني.

الدين والحوار الحضاري:

الحوار بين أهل الأديان المختلفة _ عندي _ له هدف واحد هو أن ييسر للناس العيش معاً في مجتمعات مختلف الأديان، عيشاً تسود فيه الأخوة الإنسانية، ويجري على قاعدة المشاركة المتساوية في المواطنة، ويرمي إلى أنْ لا يظلم أحد حقاً هو له بسبب تميزه الديني عن الآخرين، ولا يأخذ أحد حق غيره بسبب انتمائه الديني إلى عقيدة الحاكمين، أو الكثرة من المواطنين.

ثم إنّ الحوار بين الأديان _ حين تختلف الأوطان _ يجب أنْ يتجه إلى هذه الغاية نفسها: كيف يعيش الناس معاً في عالم يتسع للجميع، على الرغم من اختلاف العقائد والشعائر والملل والنحل . بهذه الصورة للحوار، وبهذا النطاق له، يمكن أنْ يستمر الحوار بين الحضارات وينجح. أمّا إذا أريد بالحوار بين الحضارات خضوع الناس جميعاً لنمط واحد من أنماط الحياة البشرية، وفرض (العولمة) التي لا تحترم خصوصية ثقافية، ولا تعتبر أي شأن من الشؤون وقفاً على أصحابه، وتتدخل حتى بين المرء وزوجه، فتغير التشريعات وأنماط السلوك والعلاقات لتتحول الثقافات كلها إلى مسوخ تابعة لحضارة مسيطرة، فإنّ هذا له لا يقبل ولا يعقل ولا يكتب له أن يستمر.

رابعا: نظرية صدام الحضارات

عملت نظريتي (فوكاياما وهنتجتون) على محورين رئيسيين في الدفع نحو الحضارة الغربية، فأسلوب الترغيب بالعولمة ونشر النموذج الثقافي الغربي وما فيه من قيم ومفاهيم علمانية وليبرالية وديمقراطية ورأسمالية عبر نظرية الشرق الأوسط الكبير وفردوس العولمة وأشباهها، وهذا ما اصطلح له البعض مصطلح (طريقة الجزرة)!

والأسلوب الآخر هو الأسلوب الذي اصطلحوا له أسلوب (العصا) الذي تساق له الشعوب كارهة، ويفرض عليها التغيير فرضا، عبر الترهيب من صدام الحضارات ونهاية التاريخ والتصدي للتوتاليتارية والإرهاب!

أولا: الترغيب بالعولمة وأدلجة الفكر الغربي:

الأيديولوجية هي صيغة الفكر عند محاولة تلميعه وإكسابه بريق ودعاية تدعمانه في الذهن وفي أوان المناظرة، وهكذا فإنّ أيديولوجية الغرب هي ما يروجه لنا الغرب من قيم ومفاهيم وأفكار ومناهج، مما يتحمس لها التيار الليبرالي في منطقتنا أكثر من غيره من التيارات الأخرى التي قد تأخذ من الغرب وتدع.

ومن هذه الأيديولوجيات نجد البعض يقدم الانفتاح على الغرب وتقبل العولمة على أنه عصر المعلومات وانتشارها وثورتها، وأنّ هذا الانتشار المعلوماتي سيؤدي إلى إقامة إنسانية موحدة، وهذا الرأي يرى أننا نعيش عصر الإنسانية الواحدة بعد أن كنا نعيش عصر القوميات المتعددة والأمم

المتناحرة المنغلقة الثقافات، والسبب في حالة الإنسانية الواحدة يرجع لثورة الاتصالات التي ضاعفت الاحتكاك والتفاعل العالمي عشرات المرات ليصلا إلى هذه الحالة من سيولة التفاعلات وزيادتها، لدرجة أنّ ما يحدث في أي بقعة من العالم ينقل إلى كل بقاع العالم، ويكون له تأثيره الاقتصادي والسياسي والثقافي في أنحاء كثيرة من العالم، وأصحاب هذا المذهب يرون: أننا نعيش عصر الإنسانية المنفتحة، هذا من خلال الاتجاه إلى تذويب الفوارق والحدود بين الدول، وزيادة معدلات التشابك بين الجماعات والمؤسسات الخ.

ومثال آخر على الترويج للحضارة الغربية من خلال مجموعة من الأساطير نجد من يقول: إنّ العولمة جاءت نتيجة لازدياد معدلات الاعتماد والتبادل بين دول العالم، وهذا الشكل الاقتصادي أحد أشكالها، حيث أدى ذلك الاعتماد المتبادل إلى نمو وعي جمعي بمجموعة من المشاكل المشتركة، فأصبح هناك وعياً أكبر بمشكلة البيئة ومشكلة الأمن النووي على سبيل المثال ... الخ، وهذا الاعتماد المتبادل نشأ مع نشأة الرأسمالية وازداد مع زيادة الإنتاج وازدياد حركة التجارة الدولية، وأصحاب هذا التعريف ومناصروه في العالم النامي فاتهم أنّ المقصود ليس الاعتماد المتبادل بالمعنى المشار إليه الآن، بل المقصود ذلك الاعتماد المتبادل في ظل سيطرة الشمال على الجنوب مثل العلاقة بين أوروبا وأفريقيا، وقد فات أصحاب هذه الوجهة من التعريف أنَ ما يحدث اليوم في ظل العولمة ليس علاقة اعتماد متبادل، بل علاقة سيطرة، فالعولمة لا يمكن أن تتم في جو التكافؤ.

وهناك تصور أيديولوجي آخر يرى: أنه مع استمرار التطور التكنولوجي تضاءل دور المواد الأولية في النشاط الاقتصادي، وأصبحت المعرفة العلمية والتنظيمية هي المكون الرئيسي للثروة، فأغلى عناصر الإنتاج وأندرها اليوم هي براءات الاختراع وأساليب البحث والتطوير، والحديث عن المعرفة العلمية والتنظيمية هو حديث عن المعلومات، وقد أدى تصارع التطوير التكنولوجي إلى غلبة المعلومات على أشكال الثروة الأخرى، وتراجعت الأهمية النسبية للموارد الطبيعية.

وعندما ننظر في العالم الأول وأحواله نجد أنّ المعلومات هي أهم جزء من المشروع الرأسمالي، وهي أهم بكثير من المنتج النهائي، ومن المواد الأولية، فعند حساب قيمة السلعة ونفقاتها نجد أن الشق التكنولوجي والمعلوماتي هو صاحب أكبر وزن نسبي في تكلفتها، ونجد أنّ البحث والتطوير يأخذان جزءاً كبيراً من قيمة المنتج.

كل هذه المقولات أيديولوجيات لا تعبر عن حقيقة ما يراد لنا من انفتاح – أو إن شئتم ارتماء في أحضان الغرب-، فهي ظواهر ارتبطت بعملية التفاعل مع الغرب عموما وأمريكا خصوصا، وقد تكون جزءاً من التفاعل الإيجابي في منظوره المثالي أو هي عملية الترويج للغرب كما يتم تقديمها لنا، أو هي أيديولوجية الحضارة الغربية! ومن عجيب أنّ عددا من المبهورين أخذوا بهذه الأدلجات الزائفة

فراحوا ينادون بضرورة أخذ كل ما لدى الغرب من خير وشر وعجر وبجر على حد تعبير الدكتور طه حسين في كتابه: (مستقبل الثقافة بمصر)!

لا شك أنّ الحديث السابق عن الحضارة الغربية قد يوحي بمضامين سلبية إذا أخذناه بمفهوم المخالفة، وقد يعطي انطباعاً بالتحيز ضد الغرب جملة بما يثير الريبة في صدقية ما نعرضه، غير أنّ إدراك بعض مخاطر هذه الحضارة لا يعني دفعنا باتجاه الصراع معها ابتداء، وفي هذا الإطار لا بدّ أن نبين بأننا لسنا وحدنا من يسعى للتميز الحضاري، ولا وحدنا من يقف في وجه فرض نموذج ثقافي على العالم، كما أننا نؤكد على أننا لسنا بصدد الدعوة لمواجهة مع أحد ما دامت خصوصياتنا محترمة، وهوياتنا محفوظة.

هناك في العالم منظمات كبرى وحركات ومؤتمرات ومظاهرات مليونية ودموية أحيانا تناهض العولمة، ماذا يرفض هؤلاء ؟ بالطبع هؤلاء لا يرفضون أدوات العولمة وواقعها الفعلي على الأرض من الاعتماد المتبادل والثورة المعلوماتية وثورة الاتصال، فهذه حقائق لا يمكن إنكارها، ولكنهم يرفضون محاولة تسويق النموذج الغربي وفرضه باسم العولمة والعالم الواحد، وما يستتبع ذلك من إهدار المصالح الخاصة لدول الجنوب ومنها الدول العربية والإسلامية، ومن جملة ما يرفضونه عملية تزيين العولمة، أو أدلجتها، ونحن يمكننا أن نلتمس معرفة من يقود حركة العولمة ووجهة هذه الحركة، فمعرفتنا بمن يمتلك شبكات المعلومات الكبرى يعني معرفتنا لطبيعة وفلسفة المحتوى الأيديولوجي الذي يتم بثه من خلال هذه الشبكات، ومعرفتنا بمن يدير شبكات التجارة العالمية وبمدى قوة الشركات متعدية الجنسية وقدرتها، وتأثيراتها على الدول التي تعمل على أرضها، فسنعرف تبعاً ماهية الفلسفة التي تدار بها حركة التجارة العالمية، ولصالح من تدار ؟ وهذا يرتبط سلفاً بضرورة تحديد ماهية الجهة أو الوجهة التي تقود حركة العولمة.

فالذي يميز حالة العولمة كلحظة تاريخية في مجال العلاقات الدولية عن غيرها أنّ هناك قناعة سائدة بأنّ هذه العملية الجارية من التفاعل بين أرجاء العالم إنما تتم تحت إدارة نموذج حضاري واحد، وبفاعلية قيادة قوة واحدة من قوى هذا النموذج، ونقصد بهذا النموذج الرأسمالي الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذي لم يتوافر من قبل، حيث ساد التنافس من قبل داخل الشمال بين المعسكرين الغربي (الولايات المتحدة وأوروبا)، والشرقي (الاتحاد السوفييت سابقاً وكتلته الاشتراكية).

من خلال هذا الوضع نوقن أنّ للعولمة وجهة فكرية يسعى للتبشير بها من يملك ناصيتها، وهذه الوجهة بطبيعة الحال لها دلالاتها على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، بمعنى أنّ ثمة ولع دائم لدى الغالب لبسط قيمه ونموذج حياته، كما أنّ ثمة ولع من قبل المغلوب دائماً بتقليد الغالب، وهو ما يسمى "قانون الانكسار الحضاري" الذي صاغ مضمونه ابن خلدون، وفي هذا

الإطار تتوجه العولمة لبسط قيم التحول الديمقراطي وحقوق الإنسان، كما هي في المنظومة الغربية على الصعيد السياسي، وعلى الصعيد الاقتصادي تسعى لبسط قيم مثل عالمية الاستثمار، وعالمية انتقال رؤوس الأموال، وتحرير التجارة، وحرية انتقال العمالة ... الخ، وهناك -ثالثاً- البعد الثقافي الاجتماعي الذي أضحى الآن المحور، والقيم والسلوكيات الشائعة والمنتشرة والمتبناة بلا منازع، وهذه الأبعاد الثلاثة تعبر عن مضمون العولمة أو تجيب على سؤال: ما الذي يتم عولمته ؟

ثانيا: الترهيب بصدام الحضارات:

هل من الممكن لسكان هذه القرية الأرضية المنقسمين بين أديان وأعراق وأحزاب وأفكار وألوان وأجناس وأوطان أن يعيشوا مع ذلك متسالمين آمنين متعاونين على تحقيق مصالحهم؟ أم أنّ الصراع بين ثقافاتهم على المستوى المحلي وبين حضاراتهم على المستوى العالمي ضربة لازب لا مفر منها؟ يمكن رصد أربعة آراء عالمية بصدد الإجابة على هذه الأسئلة:

فهنتجتون يرى أنّ الصدام بين الحضارات آت لا محالة، وينصح قومه بإعداد العدة للدفاع عن الحضارة الغربية[١]. أمّا (كورث) فيرى أنّ الصراع الثقافي قد بدأ في داخل الحضارة الغربية نفسها فلم تعد الحضارة التي كانت قبل[٢].بينما (فوكوياما) يرى أنّ الحضارة الغربية في شكلها الأمريكي المتفوق، والمتمثل في اللبرالية السياسية، واقتصاد السوق هي مطمح أنظار الأمم، والغاية التي يتسابقون إليها، وحين يصلونها فتلك نهاية التاريخ في هذا المضمار[٣]. وهناك من يرى أنّ التعايش السلمي بين الثقافات والحضارات ممكن إذا اتخذ الناس سبيل الديمقراطية العلمانية التعددية[٤].

خامسا: موقفنا من الحضارة الغربية

خلفيتنا الحضارية:

كانت بلاد الشام مع كلٍ من مصر والعراق المسرح الأول للحضارة القديمة، ولنقلْ بأسلوب أكثر تواضعاً لحضارة (البحر الأبيض المتوسط) بشواطئه الشرقية والغربية.

---

(١) مقال صراع الحضارات، صامويل هنتجتون Samuel Hintington, Clash of Civilizations? Foreign Affairs, Summer 1993

(٢) أنظر مثلاً: James Kurth, The Real Clash, The National Interest, No. 34, Fall 1994

(٣) هذا هو رأي فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ، الذي أثار جدلاً كثيراً في الغرب حين صدوره. Ftancis Fukuyama, The End of History and the Last Man, The Free Press, New York. 1992

(٤) هنتجتون ص ٣٩، مرجع سابق

وكانت حضارة مصر بأدوارها المختلفة إلى جانب حضارات الفينيقيين والكنعانيين والآراميين في الشام، وحضارات السومريين والبابليين والأكاديين والأشوريين في العراق، تشكل الركيزة الأساسية للحضارة الإنسانية التي انتقلت إلى اليونان.

فالأبجدية، كما المعطيات الدينية، كما تاريخ الأفكار، كما التطور التقني والعمراني، تشهد جميعاً على أنّ المُعطى الحضاري اليوناني، الذي يركز البعض على إبرازه مصدراً أساسياً للمعرفة الإنسانية عامة، لم يكن إلا صدى للحضارة العربية في تجلياتها المختلفة.

في هذا السياق نستطيع أن نقتبس إشارة واحدة من حشود الحقائق المتواترة، التي تؤكد حقيقة هذا التاريخ الحضاري، من المؤرخ الفرنسي (بير روسي) في كتابه (التاريخ الحقيقي للعرب): يقول (إننا نقرأ بريشة كاتب حسن الطوية ما يلي: (.. لو لم يترجم ابن سينا أرسطو لما وجد القديس توما الأكويني، ولكنّ الحقيقة شأن آخر إنها التالية: لو لم يتأدب الإغريق في ظل الثقافة العربية لما وجد أرسطو بالتأكيد).

إنّ الحديث عن الخلفية الحضارية لقطرنا أرضاً وإنساناً ذو شجون، وليس المقام مقام بسط وقائع التاريخ، وإنما الهدف التركيز على جملة من الحقائق:

الحقيقة الأولى: هي الرد على ادعاءات هوجاء، تصدر من أناس لم يروا في (الحضارة) إلا القوة المادية، والغنى الطاغي، فاستبد بهم البطر والغرور، وامتلأوا بالقسوة والعنجهية، وظنوا أنهم بقدرتهم على التأثير في (اللحظة)، قادرون على تغيير الماضي والحاضر والمستقبل، وأنّ بإمكانهم أن يصنفوا بني الإنسان، إلى متحضر ومتخلف، وخيّر وشرير، حسب ما تقتضيه مصالحهم، وتستدعيه أهواؤهم. إنّ هذه الادعاءات التي تختلط بالصخب العالمي اليوم، حول عناوين مثل (حوار الحضارات) أو (صراع الحضارات)؛ تدفعنا إلى التأكيد على أنّ سهمنا في الإرث الحضاري الإنساني هو السهم الأول، وأنّ حظنا فيه هو الحظ الأوفر. ونؤكد في الوقت ذاته أنّ الإرث الحضاري إرث إنساني تراكمي عام، لا يمكن أنْ يكون عنصرياً، أو فوقياً، أو متبجحاً؛ إذ أن جوهر الحضارة الإنسانية يكمن في (إنسانيتها).

والحقيقة الثانية:

هي الرد على ادعاءات أخرى يرددها بعض بني جلدتنا، وممن يتكلمون بألسنتنا، ممن أبهظهم ثقل الواقع العربي بسلبياته المتراكبة كظلمات بحر لجي، فوصلوا إلى قرارة اليأس، وحوصروا في مربع الإحباط، فارتدوا على أنفسهم (يخربون بيوتهم بأيديهم) فإذا هم يلقون باللوم والتثريب على (العقل العربي) و(اللسان العربي) و(التاريخ العربي) في حركة مريبة، (والله يعلم المفسد من المصلح). وفي هذا الذي نشير إليه جواب التاريخ القاطع على أنّ العقل العربي المظلوم والمتهم حتى من بعض أبنائه هو الذي وضع أسس الحضارة الإنسانية العامة، وهو الذي كان قبل ذلك وبعده موضع الخطاب

الرباني المباشر، فتلقى الرسالة رسالة السماء، وتحمل الأمانة أمانة البلاغ، وهو الذي سيبقى شهيداً على الناس.

ثم إنّ طرحنا للأولية الحضارية لأمتنا بشكل عام، ولشعب قطرنا العربي السوري بشكل خاص، لا يجوز أنْ يفهم منه أي بُعد عنصري، أو ادعاء إقليمي، ومن هنا يأتي تركيزنا على بعدي المرجعية (الإسلامي) و(العربي) في الدعوة إلى بناء دولتنا الحديثة.

إنّ الحديث عن أمة (سورية)، وأخرى (مصرية) وثالثة (عراقية) يغدو لغواً لا مكان له في السياق الحضاري العام، أو ضرباً من الخداع يقصد منه تزوير التاريخ لتمزيق حاضر الأمة ووأد مستقبلها. وإنه لما يثير القلق ارتفاع نبرة الخطاب الوطني في أقطار عربية تجري وراء خصوصية موهومة خارج إطارها القومي العام!

إنّ الحقيقة الأساسية التي نسعى إلى تأكيدها في هذا السياق هي جدارة إنسان قطرنا العربي السوري بتحمل مسئوليته التاريخية (حاضره ومستقبله) لخوض مضامير التنافس الحضاري.

إنّ شعبنا الذي يعيش منذ ما يزيد على النصف قرن في مناخ يكرس كل أنواع التخلف والتمزق في أطر من الوصاية: السياسية والفكرية والاقتصادية، لحقيق أن ينال فرصته ليثبت ذاته فاعلاً ومبدعاً، وليتجاوز بالوطن ما هو فيه من ضعف وتخلف وهوان.

أزمة الحضارة الغربية:

تؤكد دراسات عدة وأقوال لفلاسفة غربيين وغيرهم أنّ الحضارة الغربية تعاني من أزمة حادة يمكن لها أنْ تقوض هذه الحضارة، فقد ذهب (اشبنجلر) الى أنّ هذه الحضارة وصلت الى طور الشيخوخة، وأنها غير قادرة على تجديد شبابها، فهي كالعجوز التي تنتظر لحظة الوفاة، ويقول (اشفستر): إنها حضارة تفتقد المبرر الأخلاقي لاستمرارها، وأمّا (تونبي) فيقول: إنها حضارة من دون رسالة، وانّ تقوقعها على ذاتها وفي قومياتها سر اندفاعها نحو الهاوية، والغريب أنّ بريق هذه الحضارة الخارجي لا يزال قوياً، بينما عجلة الأفول تتسارع في داخلها. إنّ سر ذلك يكمن في الفكرة التي قامت عليها هذه الحضارة، فهي قد قامت على المادة، تراكم الثروة وترعرعت بترعرع المادة، وستنهار سريعاً حين تتداعى المادة، وهذا واضح في التغيرات الكبرى التي تحدث في المجتمعات الغربية حين تغير الأوضاع الاقتصادية، فتحاول الاستعانة بالقوة لتدارك التراجع الاقتصادي، ولا يبدو أن في كل مرة ستنجح في ذلك.

موقفنا من أدوات الحضارة الغربية

أ - الأدوات الاتصالية:

يقصد بهذه الأدوات الاتصالية ما نعرفه باسم وسائل الإعلام أولاً، ووسائل الاتصال ثانياً.

وسائل الاعلام:

من أهم أدوات الاتصال الثقافي المسبب، لما يسمى بعملية التغريب، حيث تحمل هذه الأدوات القيم والمفاهيم وأنماط السلوك الحضاري الغربي، من خلال ما تقدمه هذه الوسائل من نمطين إيجابيين من المواد الإعلامية ومن نمط سلبي أيضاً.

النمطان الإيجابيان اللذان تقدمهما وسائل الإعلام يتمثلان:

أولاً: في المواد الإعلامية والدرامية الغربية الأصل التي تعرضها هذه الوسائل على قنواتها وموجاتها.

وثانياً: يتمثل في المواد الإعلامية والدرامية العربية الأصل الغربية الطابع، وهي تلك المواد التي تشربت القيم والمفاهيم وأنماط السلوك الغربية، وتسعى لإسقاطها على الواقع العربي والإسلامي مستغلة في ذلك ملامح التغريب التي استشرت في المجتمع منذ عهد الاستعمار، ثم ما استشرى فيها من فترات التغريب الوطنية أو عهود ما بعد الاستقلال.

أمّا النمط السلبي فيتمثل فيما يتعلق بتقديم المواد المستمدة من قيم المجتمع العربي والإسلامي الأصيلة، حيث يتسم عرض هذا النمط من القيم بالتجزئة وسوء التقديم أو الامتناع عنه.

وسائل الاتصال:

الأداة الثانية التي نتحدث عنها هي شبكات الاتصال الدولية، وهذه الشبكات لها وظيفتان هما: الوظيفة المعلوماتية، والوظيفة الاتصالية، وهذه الأخيرة هي التي تعنينا إذ يتم بموجبها استخدام الإمكانيات الاتصالية، لتسهيل التواصل والتعارف، ونقل القيم والمواد الإعلامية والقيمية والمفاهيمية عبر ما تقدمه من مواد درامية وما تعرضه من كتب وتقارير، هذا فضلاً عما تحويه هذه الشبكات من مواد درامية وإباحية تستهدف التغيير القيمي لبلاد العالم الإسلامي والعربي.

ب - الأدوات الاقتصادية:

تنقسم هذه الأدوات إلى قسمين: أولهما حكومية، وثانيهما غير حكومية.

أمّا الأدوات غير الحكومية فتتمثل في الشركات متعددة الجنسيات أساساً، وهذه الشركات تتسم بالضخامة الهائلة حتى إنّ ميزانية إحداها تفوق ميزانية عشرات الدول، كما أنها تتسم بتنوع النشاط الاقتصادي والانتشار الجغرافي، والاعتماد على الكفاءات البشرية التي تجتذبها من دول العالم أجمع وتكسب ولاءها بما يخالف ولاء هذه الكفاءات للدول التي يحملون جنسياتها، وتضغط هذه الشركات على حكومات دول العالم - المتقدمة منها والنامية - كي تتبنى القيم والمعايير التي تسهل عملها ونشاطها، أو لكي تحملها على التدخل في بعض دول الجنوب كي تمنح هذه الشركات بعض

التسهيلات الأساسية التي تحتاجها، بل إنها تتدخل سياسياً في بعض دول العالم: تغتال الزعماء، وتساند مرشحين في الانتخابات، وتقصي مرشحين آخرين، ولا يقتصر نشاطها السياسي هذا على الدول النامية وحسب، بل يمتد إلى بعض الدول المتقدمة أيضاً وذلك وفق ما يخدم مصالحها.

أمّا القسم الحكومي فيتمثل في الدبلوماسية الاقتصادية التي توسعت ونمت وباتت تشكل أضخم وأقوى الإدارات في وزارات الخارجية في كل دول العالم، بعدما نجحت وسائل الإعلام في فرض "خيار التنمية" باعتباره الخيار المصيري لدول العالم الثالث، أولاً، فضلاً عن كونه الخيار الأساسي لكل دول العالم المتقدمة، وفي هذا الإطار تنشط الحكومات الغربية في الضغط على حكومات العالم بصورة جماعية من خلال المؤتمرات الاقتصادية مثل مؤتمرات الجات ومنظمة التجارة العالمية، ومن خلال المنتديات الاقتصادية العالمية، وأبرزها "منتدى دافوس".. الخ، مستهدفة بذلك تذليل العقبات أمام القوى الاقتصادية الكبرى لتعمل دون عوائق من الحكومات الوطنية التي تمثل السلاح الأساسي للدفاع عن مصالح الدول النامية في مواجهة القوى الاقتصادية العالمية.

جـ- الأدوات الاجتماعية:

إذا كان للوظيفة الاتصالية دور يخص السعي لتغيير القيم عبر وسائل الإعلام والاتصال، فإنّ الجهات أو المؤسسات التي تتولى إدارة الوظائف الاجتماعية تتمثل في المنظمات غير الحكومية، التي تتعدد أنشطتها بصورة كبيرة، فمنها ما يختص بقضايا المرأة، ومنها ما يختص بقضايا الفقر، ومنها ما يختص بقضايا حقوق الإنسان، ومنها ما يختص بقضايا الأطفال، ومنها ما يختص بقضايا البيئة، بل ومنها ما يدخل إلى ساحة السياسة من مداخل اجتماعية، وهي حركات السلام والحركات الداعية لنزع أسلحة الدمار الشامل.

وتستهدف هذه المنظمات اختراق الحدود السياسية وتعطيل مبادئ السيادة من خلال ربط العالم بداخل الدول النامية، وتمثل القضايا التي تعالجها أهم أساليب اختراقها للدول النامية، ولعلّ الجدل الذي سبق وأشرنا إليه فيما يخص المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان، ومؤتمرات المرأة والسكان يمثل أحد أهم الصور المعبرة عن محاولات اختراق السيادة، كما أنها لا تستهدف ذلك الاختراق وحسب، بل إنّ أحد أهم أهدافها الأخرى إحلال القيم الغربية محل القيم المحلية، ولعلّ أهم الأمثلة على ذلك في العالم الإسلامي والعربي، ذلك الجدل الذي أزكته هذه المنظمات فيما يخص قضية –ما يسمى- بحرية الإبداع فيما يخص قضايا مثل : قضية سلمان رشدي وتسليمة نسرين ونصر أبو زيد وحيدر حيدر وغيرهم، حيث تمحور الصراع حول قيم المجتمع وعقائده قبل أن تكون متمحورة حول أية قضية أخرى.

د. الأدوات المعلوماتية:

من أهم الأدوات التي يستخدمها المتلكون لناصية "الحضارة الغربية" ما يمكن تسميته بالأداة المعلوماتية. وهذه الأداة تنقسم إلى قسمين: القسم الأول يتمثل في شبكات المعلومات الدولية، والقسم الثاني يتمثل في مراكز وهيئات البحوث والدراسات.

أمّا القسم الخاص بشبكات المعلومات الدولية فنجد أبرزها شبكة إنترنت والطريق السريع للمعلومات، وغيرها من الشبكات، وكثير من هذه الشبكات يتصل بإنترنت ويصل للعالم من خلالها، وتستهدف هذه الشبكات تدويل كل المعلومات وتسهيل وصولها إلى كل راغبي الوصول إليها، وذلك باستثناء المعلومات التي تعد من قبيل معلومات الأمن القومي، وأهمها براءات الاختراع لدى الدول المتقدمة، وأنظمة التسليح لدى الدول النامية، ولا شك أن هذا التحكم بوضع المعلومات على الشبكة يفيد من يقومون بهذه العملية أساساً، إلا أنّ وسائل وضع المعلومات على الشبكة مفتوحة ومتاحة لمن يريد الاستفادة بالإعلام والإعلان عن نفسه، وهي الفرصة الذهبية للعالم العربي والإسلامي.

أمّا القسم الثاني فيتمثل في مراكز البحوث والدراسات التي تتعامل مع جهات أجنبية، بل وفروع ومكاتب وهيئات ومؤسسات البحوث العالمية التي تتولى جمع المعلومات وتصنيفها وتدقيقها وتوظيفها بحثياً، ولذلك تخضع هذه المكاتب والمراكز لرقابة أمنية، وإنْ كانت لا تتعامل أمنياً بصورة جافة مع المراكز الأجنبية أو المتصلة بالخارج بقدر ما تتعامل بهذه الجفوة مع المراكز البحثية الوطنية.

استكبار الغرب وقابليتنا للاستلاب!

منذ أن هيمنت الحضارة الغربية على العالم والقرارات والوثائق التي تصدرها المؤتمرات الدولية تستقي توجهاتها من قيم العالم الغربي وتوجهاته التي تستمد روحها من ثقافتهم فهي تخترق الجدار الوطني لقيم الشعوب وثقافتها، ويتضح ذلك من موقفهم من أمور مثل : الميراث، التربية الدينية للطفل، الذبائح، الحرية، العفة، الربا، تفسير الأصولية، الإرهاب مما يراد فرضه عبر المواثيق وفرض شيئا منه في المواثيق الحقوقية العالمية!

وفضلا عن اختراق القيم نجد أنّ الغرب عموما يسعى منذ استعمر منطقتنا في القرنين التاسع عشر والعشرين إلى إعادة صياغة قهرية للمجتمعات في اتجاه نموذجه المسيطر!

إنّ تأثير الحضارة الغربية لا ينحصر في التطورات التقنية والمعلوماتية والاتصالية المتسارعة فتأثيرها الحقيقي هو فيما يلحق بنفوس الأفراد وسلوكهم النفسي والاجتماعي والاقتصادي، أي في نهج حياتهم وممارستهم مما سماه شيخنا (علي الطنطاوي) رحمه الله يوما بزلزال ما بعد الحرب العالمية الأولى! فهو زلزال حقيقي خلخل الكثير من قيمنا الأصيلة وتقاليدنا المرعية، كما بلبل الانتماء لهويتنا الحضارية ومزقنا سياسيا وجغرافيا وفكريا كل ممزق!

لقد تركزت الحضارة الغربية منذ وقت مبكر في البحث في (الكون) و(المادة) و(الأشياء)، أكثر من انصرافها إلى البحث في (الإنسان)، وفهم تطلعاته وأشواقه، لذا فقد برعت هذه الحضارة، في اكتشاف قوانين المادة، وتوظيفها في منظومة حضارية تقنية قادتها إلى القوة ومن ثم إلى الثروة.

وبقي الإنسان، بالنسبة إليها، ذلك المجهول، الذي لم تستطع أنْ تسبر أغوار نفسه، أو أنْ تحلق مع آفاق روحه، بل لقد كان من طغيانها في موقفها منه، أن ضمته إلى عالم الأشياء، الذي برعت فيه، لتجعل منه مادة للبحث، فكان: (فرويد) و (ماركس) و(دوركايم)، وكانت النظرية الرأسمالية، التي لم تر في الإنسان إلا (وسيلة إنتاج) أو (مصرف استهلاك)، وبين قيم الإنتاج والاستهلاك حوصر هذا (الشيء) الذي اسمه الإنسان.

إنّ من الأخطاء القاتلة التي يرتكبها بعض بني جلدتنا، أنْ يفترضوا أنّ نجاح القوم في ميدان من ميادين الحضارة، يستتبع بالضرورة نجاحهم في الميادين الأخرى!!

إنّ أي تأمل منهجي أولي في هذه الحقيقة، يردنا إلى حقيقة أنّ براعة الإنسان في فن أو فنين، لا يعني بالضرورة أن يكون بارعاً في بقية الفنون، وأنّ الرسام الماهر نادراً ما يكون شاعراً مجيداً أيضاً !!

لقد انغمست الحضارة الغربية ابتداء في دراسة الكون وقوانينه، حتى ليمكن أن نطلق عليها بحق اسم (حضارة الأشياء)، وجعلت قضايا الإنسان الكبرى وراءها ظهريا. ثم عندما حاولت أن تتعامل مع هذا الإنسان، رسمت مناهجها أيضاً على أسس مادية، معلية شأن الإنتاج والاستهلاك، فكان من ذلك هذه النظرية الغربية القائمة على الفرد والفوضى المغلفة باسم الحرية.

وفي البعد الإنساني للحضارة الغربية، كان الفرد بمصالحه وغرائزه وأهوائه وشهواته، هو سيد الموقف، ولمّا كان (التسامي) و(الالتزام) و(التضحية) من القيم التي تكلف جهداً بنيوياً، فقد دُفع الإنسان من المكانة التي خلق فيها (في أحسن تقويم)، إلى حضيض الانسياق وراء الرغبات، والسعي إلى الإنجاز لامتلاك القدرة على الإشباع، في دائرة مغلقة بلا بداية ولا نهاية، فكان بحق (أسفل سافلين). تنصل الفرد من مسئوليته الإنسانية والاجتماعية، بل الأسرية أيضاً،فقد أودع أمه وأباه في المؤسسات الاجتماعية، وتوقف عن الإنجاب لأنّ (الولد) سيقف حائلاً في وجه رغبته في (الإشباع)، أو سيكون شريكاً في قدرته عليه، وإذا ما أنجب طلب من الدولة، أو لنقل بأسلوب أدق المؤسسة الراعية لعملية الإنتاج والاستهلاك، أن تتحمل مسئولية الولد، باعتباره أداة للإنتاج المستقبلي أيضاً..!!

وحين تتم مقاربة: المجتمع والجماعة والأسرة، فباعتبار هؤلاء وسيلة لإسعاد الفرد وإشباع رغباته، ومن هنا كان وجودهم، باعتبار آخر، معيقاً لحركة الفرد، ومحدداً لحريته، مشاركاً له في دائرة الاستحواذ، الذي لا يريد أن يرى له فيها شريكاً، فكان هؤلاء الآخرون هم جهنم الحقيقية، التي

هرب منها الفرد الغربي المعاصر، حسب تعبير (جان بول سات) أحد كبار فلاسفتهم في القرن العشرين: (جهنم هي الآخرون).

وهكذا غدت كل (القيم) و(الفضائل) المتعارف عليها، والتي بشر بها الأنبياء والمصلحون، خرافةً من صنع الإنسان، أو من صنع المجتمع، ليستغل الفرد، وليوظفه في خدمته. حيث يريد (الكَلُّ) أن يفرض نفسه على (المنتج)، و(الضعيف) على (القوي)، و(البليد) على (الألمعي)، باسم قيم اجتماعية، أو دعاوى إنسانية، على الفرد أن يتحرر منها، وأن يلقي عبئها على المؤسسة الراعية للإنتاج التي اسمها الدولة.

ومن منظور الفردية هذا، انبثقت (قيم) حضارة مادية استهلاكية بعيداً عن (الدين) و(القيم) و(الإنسانية) و(المجتمع) و(الأسرة) فهذه البنى، في مفهوم الحضارة المادية، ليست إلا وسائل لمخادعة الفرد، ليتنازل عن حقوقه لأوهام لا وزن حسياً لها، بل هي من صنع المستفيدين من الضعفاء.

هذه النزعة الفردية التي ترفض التضحية من أجل طرف آخر، حتى لو كان هذا الآخر: والداً أو ولداً، في نزوع أناني يرى في الحياة فرصة عابرة، من حق صاحبها أن يستغلها في الاستمتاع بأقصى ما يستطيع من اللذات.

ولقد كان لهذه المدرسة الفردية جذورها الفلسفية التاريخية التي تضرب بعيداً في المدرسة (الأبيقورية) و(الهيرونية)، التي دعت إلى أقصى حد من اللذة بأدنى قدر من الجهد.

قد تبدو الماركسية، وهي من مدارس الفكر الغربي الحديث، قد ناقضت الروح الفردية التي أشاعتها الرأسمالية، ودعت إلى إذابة الفرد في المجتمع، والدولة في الطبقة، إلا أنّ الخلاف (الرأسمالي .الماركسي) لم يكن إلا خلافاً ظاهرياً، إذ أعلى كلا المذهبين شأنَ (الإشباع الحسي) ورآه الرأسماليون نشاطاً فردياً محضاً، بينما دعا الماركسيون إلى تحقيقه من خلال الفرد الملتحم بالمجتمع. لقد أهدرت الماركسية كل عناصر (الفرادة الإنسانية)، ووأدت طموحات الفرد وتطلعاته، وتجاوزت حدود كينونته الخاصة، وحقه في أن يستمتع ببعض ثمرات جهده وكده، وقادت بالتالي إلى قيام أنظمة شمولية ذات طبيعة قمعية، سحقت إرادة الإنسان، وسيطر الأفراد الحزبيون على كل شيء باسم الجماعية، مما أدى إلى انهيار النظام الماركسي من القواعد.

ومع إقرارنا بتفوق الحضارة الغربية في جانبها المادي، مما أدى إلى امتلاكها توأمي القوة والثروة. إلا أننا لا نعتبر الحضارة الغربية بكل أبعادها أنموذجاً نسعى إلى تقليده، لنصير إلى ما صار القوم إليه. وإذا كنا نفتقد بالحقيقة هذين العنصرين من عناصر العمران البشري (القوة والثروة)، فإنّ هذا لا يعني تضخيم هذين البعدين، واعتبارهما كل شيء في بناء الحضارة. إنّ مشروعنا الحضاري يرتكز على رؤية متكاملة، ترعى شؤون الإنسان كما شؤون الكون والحياة، بلا تفريط ولا إفراط.

موقفنا من الفكر الغربي[1] (تأصيل قرآني):

إنّ الناس يهتدون في اتخاذهم لمواقفهم بما عندهم من علم وبما وهبهم الله من عقل، لكنّ المسلمين يهتدون إلى جانب ذلك بما حباهم الله تعالى به من هداية القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] وهداية القرآن ليست هداية دينية بالمعنى المحدود الشائع في عصرنا لهذه الكلمة، إنها هداية تشمل كل ما يحتاج إليه الناس أفراداً وجماعات في أمورهم الروحية والجسدية، في حياتهم الدنيوية والأخروية.

ومن أنواع هداية القرآن المتصلة بموضوعنا هذا أن يعطينا حقائق عامة عن المجتمعات البشرية من النوع الذي يحاول علماء الاجتماع أن يصلوا إليه بدراساتهم التجريبية، يهتدي المسلمون بهذه الحقائق في نظرتهم للكون البشري، وفي تفسيرهم لما يحدث فيه، وفي تعاملهم معه، ولا أقول إنهم يستغنون بهذه التوجيهات القرآنية عن دراسة الواقع واستخلاص الحقائق منه، لكنّ الهداية القرآنية تعطيهم في هذا الصدد حقائق كلية مهمة قد لا يستطيعون الوصول إليها بجهدهم البشري.

ومن هذه الحقائق الاجتماعية:

أولاً: أنّ كل جماعة من البشر ترى أنّ ما هي عليه من المعتقد والقيم والعمل أفضل مما عليه غيرها، مهما كان ما هي عليه باطلاً بمقياس الشرع الحق: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٠٨]

ثانياً: أنه كلما كان غيرهم أقرب إليهم كان أحب إليهم:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٣]

ثالثاً: أنهم لا يرضون رضاً كاملاً إلا عن من كان على شاكلتهم:

قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]

رابعاً: أنّ حرصهم على أن يكون غيرهم معهم يدفعهم للضغط على المخالف –ولا سيما مخالفاً يُساكنهم- بأنواع من الضغوط تصل أحياناً حد الضرب أو السجن أو النفي أو حتى القتل:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال:٣٠]

---

(١) موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى:د. جعفر شيخ إدريس. رمضان ١٤١٦ هـ الموافق فبراير ١٩٩٦م (منشور على موقعه بالإنترنت)

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ [الأعراف:٨٨] .

خامساً: أنّ من أهل الأديان والحضارات من يَعُدُّ دينَه أو حضارته من خصائص قوميته أو عرقه فلا يريد للآخرين أن يشركوه فيها، بل لا يراهم مساوين له حتى من الناحية الإنسانية، فلذلك لا يرى نفسه مُلزماً بأنْ يلتزم في تعامله معهم بالقيم الخُلقية:

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٥]

سادساً: لكنّ أولئك وهؤلاء جميعاً يريدون لمعتقداتهم أو لحضارتهم أن تكون هي المسيطرة وأن يكون أصحاب الحضارات الأخرى خداماً لمصالحهم.﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء:٢٩]، هذه الرغبة في السيادة والسيطرة تدفعهم لأن يعدّوا العدة لضمان بقاء حضارتهم وللدفاع عنها في حال وجود خطر يهددها، وللعمل لإخضاع الآخرين لها، وهم يستعملون في ذلك كل إمكاناتهم التي يرونها مساعدة لتحقيق هذه الأهداف بما في ذلك اللجوء إلى الحرب.

وأوضح مثال في عصرنا على هذه الرغبة الجامحة في السيطرة، وفي الحرص على ضمان دوامها، هو حال الغرب ممثلاً في دولته الكبرى، الولايات المتحدة الأمريكية. أنهم لا يخفون شيئاً من هذا الذي ذكرناه، بل يعلنون عنه في صراحة، ويفصلون الأمر فيه تفصيلاً تظنه حين تقرؤه كلاماً لخصومهم أو لأعدائهم. وهذا نفسه إنما هو من فرط ثقتهم بأنفسهم. فـ(هنتجتون) مثلاً يقرر في مقاله الذي طبقت شهرته الآفاق أنّ الغرب هو المسيطر الآن على المؤسسات العالمية السياسية والاقتصادية، وأنّ القرارات التي تتخذها الأمم المتحدة أو مجلس الأمن أو صندوق النقد الدولي والتي تعبر عن مصالح الغرب تبرز للعالم على أنها المعبرة عن مصالح المجتمع الدولي.

بل إنّ عبارة المجتمع الدولي (التي حلت محل عبارة العالم الحر) صارت هي نفسها الاسم الملطف الذي يمنح الشرعية لكل الأعمال المعبرة عن مصالح الولايات المتحدة وسائر القوى الغربية. فعن طريق مؤسسة النقد وسائر المؤسسات الاقتصادية الدولية يسعى الغرب لخدمة مصالحه ويفرض على الأمم الأخرى السياسات الاقتصادية التي يراها مناسبة.

ويقول: إنّ الهدف من الحد من انتشار الأسلحة إبان الحرب الباردة كان تحقيق توازن عسكري مستقر بين الولايات المتحدة وحلفائها والاتحاد السوفيتي وحلفائه. أمّا في عالم ما بعد الحرب الباردة فقد صار الهدف الأول من الحد من انتشار الأسلحة هو منع الدول غير الغربية من

تطوير قدرات عسكرية قادرة على تهديد المصالح الغربية. ويحاول الغرب أنْ يحقق هذا عن طريق الاتفاقات الدولية، والضغوط الاقتصادية، والحد من نقل تقنية السلاح والعتاد.

التعايش الحضاري:

إنّ التعايش السلمي بين أهل الأديان والحضارات كلها يُيسر عليهم تبادل المنافع المادية والفكرية، كما ييسر عليهم التعاون على حل المشكلات التي يبتلون بها جميعاً. إنّ ضمور العالم من حيث الاتصالات والمواصلات لم يخل من كثير من الآثار السيئة. فالأمراض تنتقل بسرعة من بلد إلى آخر، وتنتقل كذلك المخدرات والمجرمون، وأفلام الرذيلة والضلال. ثم هناك مشكلة تلوث البيئة وما نتج عنها من خرق لطبقة الأوزون، وما يُقال إنه سيترتب على ذلك من مشكلات على مستوى الكرة الأرضية كلها. كل هذه المصائب المشتركة تستدعي تعاوناً بين الناس في المجتمع الدولي.

لكنّ التعاون لا يقتصر على مواجهة هذه المصائب المشتركة، بل إنّ التعايش السلمي يساعد كل أمة على أنْ تتعاون مع من شاءت من الأمم التي ترى في تعاونها معها تحقيقاً لمصلحة الطرفين.

غير أنه من البديهي أنّ هذه الصورة المثالية للتعاون لن تتحقق إذا ظل أهل الحضارة الغربية على خوف دائم من أنْ تضعف أو تزول سيطرتهم، وعلى حرص دائم لذلك بأنْ لا يتطور غيرهم. إنّ (هنتنجتن) يرى أنّ الصدام القادم سيكون بين الحضارة الغربية من جهة والحضارتين الإسلامية والكنفشيوسية من جهة أخرى، أي أنّ الحضارتين الإسلامية والكنفشيوسية ستتعاونان على مواجهة الحضارة الغربية. لماذا تتعاون هاتان الحضارتان؟ هل لأنّ الصلة بينهما أقوى من صلة كل منهما بالحضارة الغربية؟ إنّ (هنتنجتن) يُخبرنا بأنّ أهم مكون للحضارة هو الدين. فهل يقول إنّ الكنفشيوسية أقرب إلى الإسلام من النصرانية؟ ما أظن أحداً يعرف الديانتين، ويعرف مكانة النصرانية واليهودية في الإسلام بالنسبة إلى غيرهما من الأديان، يمكن أن يقول هذا. وإذن فإنّ السبب الحقيقي لهذا التعاون إنْ حدث لن يكون نابعاً من طبيعة الحضارتين، بل من معاملة الحضارة الغربية لهما. أريد أنْ أقول إنّ الحضارة الغربية هي التي تدفع الآخرين لمعاداتها حين تعمل على الوقوف في طريق التطور الطبيعي لغيرها، وحين تعد كل ما عداها خطراً عليها فتتحدث عن الغرب والآخر The West and the rest تماماً كما كان بعضهم ولعله لا يزال يصف كل من ليس على دينه بالأميين ولا يرى أنه مُلزم في التعامل معهم بخلق ولا دين.

سادسا: الإسلام هو البديل

معايير التقوى في الحضارات

هنالك ثلاثة معايير يرسمها القرآن الكريم للحضارة التي تريد أن تكون حضارة عالمية تستوعب البشرية كافة، وتدفع كافة المنضوين تحتها للتنافس الإيجابي في البناء الحضاري الخلاق. ونجد هذه المعايير في سورة البقرة في الآية١٧٧.

ففي هذه الآية المباركة يبين القرآن، أنّ البر وهو التوسع من الخير والإحسان، ويمكن لنا اعتباره هنا بالفعل الحضاري، يتمثل في مجموعة من القيم :

في المعيار الأول: وهو المعيار الاعتقادي الذي يشكل المرجعية الفكرية لأية حضارة.

وفي المعيار الثاني: يبين الالتزامات العملية التي تلتزمها الحضارة كلها، وهي دلائل التزام بالمرجعية الفكرية، وهذه المعايير نسميها بالمعايير العملية.

وفي المعيار الثالث: يوضح القرآن الكريم القيم الأخلاقية الضابطة لحضارة الإيمان، والدالة على صدقها في التزاماتها، الداخلية والخارجية.

يقول تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]

فتحت المعيار العقائدي تندرج العقائد التالية:

١/الإيمان بالله.

٢/الإيمان باليوم الآخر.

٣/الإيمان بالملائكة.

٤/الإيمان بالوحي السماوي المركز في الكتب السماوية و أوثقها القرآن الكريم.

٥/الإيمان بكافة الأنبياء والمرسلين، وخاتمهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وتحت المعيار العملي تندرج الالتزامات التالية:

١/الإنفاق على الحلقات الضعيفة، في المجال الحيوي الحضاري.

٢/إقامة الصلاة، كتعبير لالتزام الحضارة في خضوعها لله سبحانه وتعالى.

٣/أداء الضرائب المحددة.

وتحت المعيار الأخلاقي تندرج الأخلاقيات التالية:

١/الوفاء بالعهود والمواثيق.

٢/الصبر في مختلف الظروف التي تمر بها الحضارة.

وحسب بعض المفسرين، فإنّ الالتزام بهذين الخلقين يكفيان لدفع أي مجموعة للالتزام بأية أخلاقيات أخرى، فهما أصلان للكثير من السلوكيات الفاضلة.

الحضارة النموذج

من اجل هذه المعايير التي التزمت بها المجموعة البشرية التي عاشت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم استحقت أن يخلدها القرآن الكريم ويعتبرها النموذج الحضاري للبشرية.

يقول تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠].

ويقول تعالى عن الحضارة النموذج: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

قال صاحب المعين: الوسط من كل شيء أعدله أفضله، ووسطية الأمة إشارة الى نموذجيتها، وجدارتها بالاقتداء. وبذلك فانّ الحضارة الإسلامية تمثل الوسط النموذجي، وهذه الوسطية تعني النظرة المتوازنة بين المادة والروح، وحق الفرد وحق الأمة، والاعتزاز بالذات والانفتاح على الآخر.

وكما أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم نموذج لأبناء الأمة الإسلامية للاقتداء، كذلك الأمة الإسلامية نموذج للحضارات الأخرى.

نسأل الله سبحانه وتعالى أنْ يوفقنا للالتزام بالتقوى حتى نكون نماذج إيجابية، نعكس التحضر الايماني، ونحن نعيش في وسط الحضارة الغربية المنافسة اليوم لحضارة السماء.

حضارتنا في عيون الغربيين:

"لا يمكن أن نجد ديناً يحتل العلم والمعرفة فيه محلاً بارزاً كما كان الأمر في الإسلام(كونستان جيورجيو)"

تميزت الحضارة العربية الإسلامية بغايتها الربانية، ورؤيتها الإنسانية ونزعتها العالمية، ونظرتها الشمولية، وفكرتها الوسطية، وصبغتها الأخلاقية. وهذه الحضارة هي الوحيدة في التاريخ التي وصلت الدنيا بالآخرة، وربطت السماء بالأرض، وآخت بين العقل والقلب، ومزجت المادة بالروح، وأرضت الفرد والمجتمع، ووازنت بين الحقوق والواجبات، وجمعت بين الواقع والمثال.. لقد وحّدت بحق بين الثنائيات، وأخرجت منها شراباً خالصاً سائغاً للشاربين.

فيما يلي أنقل شهادات غربية منصفة في حضارتنا انتُزعت من أقلام مفكرين غربيين درسوا الإسلام فراعهم جماله، وأعجبتهم مبادئه، ولكنهم لم يُنزلوا قناعاتهم من سماء العقل إلى أرض القلب، ولم يسقوها بماء الوجدان، فلم تنمُ غراسها ولم تثمر !.

وفشلوا في أن يحوّلوا الاقتناع بالحق إلى اعتناق له، والإعجاب بالإسلام إلى عقيدة تجري في العروق، نعم لم يبقَ أمامهم إلا ضربة معول واحدة كي يصلوا إلى النبع الثّر الزلال، فلم يفعلوا. حاموا وهم الظّمآء حول الماء ولم ينهلوا !! .

وإنما نعرض أقوالهم لأولئك المهزومين أمام الغرب، الذين لا يشربون الكأس الرويّة إلا إذا كانت بيد غربية ! ولا يجرعون الدواء إلا من تلك الصيدلية !!

على أنّ بعض هذه العبارات كانت في سياقها شَرَكاً نُصب للعقل المسلم، ولا حرج علينا – أظن – إنْ لقطنا الحبة، ومزقنا الشبكة، وطرنا بسلام.

يقول المؤرخ الإنجليزي (ويلز): "كل دين لا يسير مع المدنية في كل أطوارها فاضرب به عرض الحائط، وإنّ الدين الحق الذي وجدته يسير مع المدنية أينما سارت هو الإسلام ... ومن أراد الدليل فليقرأ القرآن وما فيه من نظرات ومناهج علمية، وقوانين اجتماعية، فهو كتاب دين وعلم واجتماع وخلق وتاريخ، وإذا طُلبَ مني أن أحدّد معنى الإسلام فإني أحدده بهذه العبارة " الإسلام هو المدنية[1]".

وتقول المستشرقة (زيغريد هونكه) في كتابها القيم: (شمس الله تسطع على الغرب): "إنّ هذه القفزة السريعة المدهشة في سلم الحضارة التي قفزها أبناء الصحراء، والتي بدأت من اللا شيء لهي جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني ...وإنّ انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة لفريدة من نوعها، لدرجة تجعلها أعظم من أن تُقارَن بغيرها، وتدعونا أنْ نقف متأملين: كيف حدث هذا ؟! إنه الإسلام الذي جعل من القبائل المتفككة شعباً عظيماً، آخت بينه العقيدة، وبهذه الروح القوية الفتية شق العرب طريقهم بعزيمة قوية تحت قيادة حكيمة وضع أساسها الرسول بنفسه ... أو ليس في هذا الإيمان تفسير لذلك البعث الجديد؟

والواقع أنّ (روجر بيكون) أو (جاليليو) أو (دافنشي) ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي. . إنما السباقون في هذا المضمار كانوا من العرب الذين لجؤوا – بعكس زملائهم المسيحيين – في بحثهم إلى العقل والملاحظة والتحقيق والبحث المستقيم، لقد قدّم المسلمون أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم ... وإنّ كل مستشفى وكل مركز علمي في أيامنا هذه إنما هي في حقيقة الأمر نُصب تذكارية للعبقرية العربية ... وقد بقي الطب الغربي قروناً عديدة نسخة ممسوخة عن الطب العربي، وعلى الرغم من إحراق كتب ابن سينا في مدينة (بازل) بحركة مسيحية عدائية، فإنّ كتب التراث العربي لم تختف من رفوف المكتبات وجيوب الأطباء، بل ظلت محفوظة يسرق منها السارقون ما شاء لهم أن يسرقوا[2]" .

---

(١) عن)الإسلام والمبادئ المستوردة) د. عبد المنعم النمر (٨٤).

(٢) شمس الله تسطع على الغرب ص (١٤٨ – ٢٦٩ – ٣١٥ – ٣٥٤)

وعلى مدى الكتّاب كانت المؤلفة تعقد المقارنات بين منهج العرب المسلمين في البحث العلمي وبين ما كان عليه العقل الغربي من تسطّح فتقول: "اتسعت الهوة بين الحضارة العربية الشامخة والمعرفة السطحية في أوربا التي كانت ترى أنّ من الكفر والضلال القول بأنّ الأرض كروية، فمعلم الكنيسة (لاكتانتيوس) يتساءل مستنكراً: أيعقل أن يُجنّ الناس إلى هذا الحد، فيدخل في عقولهم أنّ البلدان والأشجار تتدلى من الجانب الآخر من الأرض، وأنّ أقدام الناس تعلو رؤوسهم؟!![1]".

قلت: منذ ألف عام توصل فقيه الأندلس الإمام ابن حزم إلى الجزم بكروية الأرض منطلقاً من القرآن الكريم ومن التنظيم المطّرد لمواقيت الصلاة في محيط الأرض... وقد بسط ذلك في كتابه الموسوم (الفصل بين المِلل والنِّحَل).

ويقول العلامة (بريفولت): "ما من ناحية من نواحي الازدهار الأوربي إلا يمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، وإنّ ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه لنا من كشوف مدهشة ونظريات مبتكرة، بل إنه مدين بوجوده ذاته ... ولم يكن (بيكون) إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوربا المسيحية، وهو لم يَملّ قط من التصريح بأنّ اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق[2].. ولقد انبعثت الحضارة الإسلامية انبعاثاً طبيعياً من القرآن، وتميزت عن الحضارات البشرية المختلفة بطابع العدل والأخلاق والتوحيد، كما اتسمت بالسماحة والإنسانية والأخوّة العالمية[3]".

ويقول المفكر (ليوبولد فايس): "لسنا نبالغ إذ قلنا إنّ العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه، لم يُدشّن في مدن أوربا، ولكن في المراكز الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة[4]"."نحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة، وحسب المسلمين أنهم كانوا مثالاً للكمال البشري، بينما كنا مثالاً للهمجية[5]".

ويقول الكاتب الفرنسي (أناتول فرانس) في كتابه (الحياة الجميلة): "أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة (بواتييه) عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام بربرية الفرنجة، ألا ليت شارل مارتل قطعت يده ولم ينتصر على القائد الإسلامي (عبد الرحمن الغافقي)" وحين نتذكر كم كان العرب بدائيين في جاهليتهم يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحرزوه خلال مئتي سنة وعمق ذلك التقدم أمراً يدعو إلى الذهول حقاً، ذلك بأنّ علينا أن نتذكر أيضاً أنّ النصرانية احتاجت إلى نحو من ألف وخمسمائة سنة لكي تنشئ ما يمكن أن يُدعى حضارة مسيحية، وفي الإسلام لم يُولّ كل من

---

(١) نفسه ص (٣٧٠)

(٢) (بناء الإنسانية) رويلت بريفولت نقلاً عن (مقدمات العلوم والمناهج) أنور الجندي، مجلد٤ ص(٧١٠(

(٣) عن (أخطر ما تواصى به المسلمون عبر الأجيال) أنور الجندي (١٦)

(٤) الإسلام على مفترق الطرق) محمد أسد (٤٠)

(٥) هنري شامبون عن(الإسلام والمبادئ المستوردة) د.عبد المنعم النمر (٨٤)

العلم والدين ظهره للآخر، بل كان الدين باعثاً على العلم، وإنّ الحضارة الغربية مدينة للحضارة الإسلامية بشيء كثير إلى درجة نعجز معها عن فهم الأولى إذا لم تتم معرفة الثانية [١]"ويقول المسيو (سيديو): "لم يشهد المجتمع الإسلامي ما شهدته أوربا من تحجر العقل، وشل التفكير، وجدب الروح ومحاربة العلم والعلماء، ويذكر التاريخ أنّ اثنين وثلاثين ألف عالم قد أُحرقوا أحياء ! ولا جدال في أنّ تاريخ الإسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر، بل كان المسلمون منفردين بالعلم في تلك العصور المظلمة، ولم يحدث أن انفرد دين بالسلطة، ومنح مخالفيه في العقيدة كل أسباب الحرية كما فعل الإسلام[٢]".

(لقد ديست بالأقدام تلك المدنية العظيمة في الأندلس! لماذا ؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة، ومن طباع شريفة، نعم من رجال الإسلام. إنّ المدنية الإسلامية لم تتنكر يوماً للحياة[٣]).

ويقول (جورج سارتون):"المسلمون عباقرة الشرق، لهم مأثرة عظمى على الإنسانية، تتمثل في أنهم تولّوا كتابة أعظم الدراسات قيمة، وأكثرها أصالة وعمقاً، مستخدمين اللغة العربية التي كانت بلا مراء لغة العلم للجنس البشري[٤]... لقد بلغ المسلمون ما يجوز تسميته (معجزة العلم العربي) .

وتقول الدكتورة (لويجي رينالدي): (.. لما شعرنا بالحاجة إلى دفع الجهل الذي كان يثقل كاهلنا، تقدمنا إلى العرب ومددنا إليهم أيدينا لأنهم كانوا الأساتذة الوحيدين في العالم[٥]).

ويقول البروفسور (غريسيب) مدير جامعة برلين: (أيها المسلمون ما دام كتابكم المقدس عنوان نهضتكم موجوداً بينكم، وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم، فارجعوا إلى الماضي لتؤسسوا المستقبل[٦]).

ويقول المستشرق (درايب): (ينبغي أن أنعي على الطريقة التي تحايل بها الأدب الأوربي ليخفي عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا ! إنّ الجور المبنّي على الحقد الديني، والغرور الوطني لا يمكن أنْ يستمر إلى الأبد[٧]).

ويقول (روم رولان): (تفرد العلم الإسلامي بأنه لم ينفصل عن الدين قط، والواقع أنّ الدين كان ملهمه وقوته الدافعة الرئيسة، ففي الإسلام ظهر العلم لإقامة الدليل على الألوهية).

---

(١) المستشرق روم لاندو في (الإسلام والعرب) ص(٩-٢٤٦)
(٢) نقلاً عن كتاب (هكذا كانوا ... يوم كنا) د. حسان شمسي باشا (٨٣)
(٣) الفيلسوف نيتشه عن (ظلام من الغرب) للعلامة محمد الغزالي .(140)
(٤) نقلاً عن (هكذا كانوا يوم كنا) د. حسان شمسي باشا ص
(٥) عن (مقدمات العلوم والمناهج) أنور الجندي – مجلد ٧ ص(١٤) .
(٦) عن (هكذا كانوا يوم كنا) د. حسان شمسي باشا (٩)
(٧) عن (تشكيل العقل المسلم) د. عماد الدين خليل (٩٤)

ويقول (رينان): (ما يدرينا أن يعود العقل الإسلامي الوَلود إلى إبداع المدنية من جديد؟ إنّ فترات الازدهار والانحدار مرت على جميع الأمم بما فيها أوربا المتعجرفة[١]).

ونختم بنقول من كتاب (حضارة العرب) لغوستاف لوبون يقول: (إنّ حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوربية الوحشية في عالم الإنسانية، فلقد كان العرب أساتذتنا ... وإنّ جامعات الغرب لم تعرف لها مورداً علمياً سوى مؤلفات العرب، فهم الذين مدّنوا أوربا مادة وعقلاً وأخلاقاً، والتاريخ لا يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه ... إنّ أوربا مَدينة للعرب بحضارتها ... والحق أن أتباع محمد كانوا يذلّوننا بأفضلية حضارتهم السابقة، وإننا لم نتحرر من عقدتنا إلا بالأمس ! وأنّ العرب هم أول من علّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ... فهم الذين علّموا الشعوب النصرانية وإنْ شئت فقل حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان ... ولقد كانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة ... [٢]).

إنّ القفزة الحضارية الهائلة التي سجّلتها أمتنا الإسلامية، يمكنها أنْ تعود، وأنْ تتكرر من جديد، بشرط واحد هو أنْ نريد بإذن الله، فالإمكان الحضاري الذي تهبنا إياه القيم المعصومة في الكتاب والسنة والسيرة، ليس ببعيد على من يريده ويسعى إليه، وقد بدأت تتفتح أزهار الانتصار العاطفي للإسلام في ضمير الأمة، ولم يبقَ إلا أن تتعمق جذور الوعي كي تثمر هذه الأزهار. ويقع عبء التوعية أولاً على كاهل النخبة المخلصة المتخصصة المؤتَمنة على إيصال صوت نبيها إلى العالم ... وهؤلاء هم (أولو الألباب) الذين مزجوا الحق بالصواب، والذين باعوا أعمارهم وجهودهم وطاقاتِهم لله تعالى، فربحوا مرتين إذ البضاعة منه والثمن ! ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١]).

وإنّ الحضارة في صعود، إذا كانت النخبة المبدعة المؤمنة هي التي تقود، ومن بعد النخبة يأتي دور الأمة، ليقوم كل مسلم بدوره في عملية النهوض الحضاري، وإنّ أول عمل حضاري في تاريخ الإسلام وهو بناء المسجد، قد شاركت فيه عزائم كل المسلمين، بقيادة نبيهم الأمين، وكذلك الأمر في حفر الخندق إذ كان الصحابة كلهم على أمرٍ جامع، وإنّ الحضارة لن تنجم إلا عن تجمع آلاف الجهود الصغيرة النافعة، والنهر المتدفق هو قطرات ماء تآخت ثم وجدت طريقها.

---

(١) عن (مقدمات العلوم والمناهج) أنور الجندي (٨ / ١٧٣)

(٢)حضارة العرب) غوستاف لوبون ص(٢٦ – ٢٧٦ – ٤٣٠ – ٥٦٦).

إنّ على كل مسلم أنْ يقوم بدوره في عملية البناء الحضاري للأمة، وإنّ كل مسلم مدعوّ إلى نزهة القمم، فعليه أن يُنَزِّه نفسه عن وهدة السفوح. فأمام المسلم اليوم خياران: إمّا أن يسعى إلى تغيير نفسه ليتغيّر العالم، وإمّا أن يُغيّر اسمه[١] .

*** الإنسان ركيزة الحضارتين - الإسلامية والغربية- كيف تنظران إليه؟**

في مشروعنا الحضاري يحتل الإنسان، الفرد والمجتمع، المكانة الأولى في رؤيتنا الحضارية، ولقد كان الإنسان على مرّ التاريخ، هو العنصر الأول الفعال المؤثر في مسيرة الحضارة، ولم تكن الحضارة إلا سعي الإنسان لتحسين ظروف وجوده، والارتقاء بأساليب عيشه، وأنماط علاقاته بالآخرين. ولقد كان الإنسان دائماً هدف الحضارة وأداتها، فهو في سعي دائب نحو الأكمل والأرقى،وهو في الوقت نفسه القائم بأمر هذه الحضارة، والحامل لعبئها.

ومع أنّ الإسلام قد أكدّ في كثير من نصوصه الربانية، على الدور الإيجابي الفاعل والمبدع للإنسان (الفرد)، من خلال انتظامه عضواً في جماعة، كما سنشير إلى ذلك بعد قليل، إلا أنّ حالة من (الوهن) و(السلبية) و(التواكلية) قد رانت على شخصية الإنسان المسلم، بفعل عوامل سياسية وثقافية بعيدة عن روح الإسلام ومنهجه، فدفعت بالأمة من خلال إنسانها إلى هامش الحياة، وانحدرت بها من يفاع (العلم) و(السيادة) إلى حضيض الجهل والتبعية.

ولقد فقد الإنسان (العربي) هويته، وأضاع ذاته، وسعى منذ منتصف القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين، إلى أن يعيد طرح مشروع نهضوي عربي، إلا أنّ الجهود في هذا المجال قد منيت بالإخفاق، ولعلّ من الأسباب الرئيسية لذلك العجزَ عن إعادة التأهيل الحضاري (للفرد) و(للجماعة)؛ وفق معطيات التصور الإسلامي، والبناء التاريخي والنفسي للإنسان العربي. وخلال ما يزيد على القرن، فقد كانت هناك العديد من المحاولات الضالة لإلحاق الإنسان العربي، بحضارات أخرى، قصارى ما يمكن أن يحققه من خلالها من نجاح، أنْ يكون تابعاً جيداً للآخرين!!

<u>الغرب: مادية وفردية:</u>

لا يقوم الإنسان وحده، مع ضخامة فرديته، ولا يستطيع أنْ يعيش بعيداً عن الآخرين من بني جنسه، فهو محتاج إليهم في كل مرحلة من مراحل حياته احتياجاً له خصوصيته، فهو يحتاجهم منذ ولادته احتياج عجز وضعف، فإذا بلغ أشده احتاجهم احتياج نقصان لتبادل المنافع وتكاملها، فإذا مارُد إلى أرذل العمر عاد إليه العجز والضعف.

ولذا فقد تأسست الحضارة الإنسانية في مختلف أدوارها وأقطارها، على الإنسان المنتظم في جماعة، وكانت الأسرة الراعية الكافلة، في تطوراتها المتعاقبة، هي أصغر وحدة للاجتماع الإنساني.

---

(١) من كتاب (ربحت محمداً ولم أخسر المسيح).

إنّ النظرية الإسلامية في الخلافة والاستخلاف، ركيزة أساسية في بناء التصور الإسلامي للإنسان الفرد، المنتظم في إطار وحدات جماعية: من الأسرة، والحي، والعشيرة، والقوم، والمجتمع والإنسانية. وفي كل دائرة من دوائر الوجود هذه تتقابل الحقوق والواجبات، في توازن رباني مطلق، يحفظ على الفرد خصوصيته، كما يحفظ له بحفظه للجماعة وجوده.

أمّا النظرية الغربية، - ولا سيما في عصر العولمة-، فقد اشتطت في إطلاق العنان للفرد، تحت مسمى الحرية، وجعلت من تلبية متطلباته في (الإشباع) و(المنفعة) هدفاً أساسياً للحضارة الإنسانية، فكل ما يشتهيه الفرد مباح، ورغباته في أطرها المختلفة هي المشروع الحضاري لنظام العولمة الاستهلاكي، دون النظر إلى أي قيمة أخلاقية، فكل ما يروج في السوق، سوق الفردية هو الأجمل والأقوم، مادام يُكسب مالاً أو يُدر ربحاً. و(الفرد) (القادر) أو (المالك) هو الذي يضع قانون الحياة وناموسها، ولو على حساب: كدح الآخرين، أو جوعهم، أو عريهم، أو كرامتهم !!

الهوية الحضارية

يفقد الإنسان في صيرورة الحضارة الغربية (المادية)، التي تطغى على العالم المعاصر، جوهر إنسانيته، وحقائق انتمائه: العقائدي والقومي والوطني، ليتحول إلى (رقم) معبر عن (كمٍ سلعي)، في عالم لا يأبه كثيراً لمعاني الحق والخير والجمال، ولا يؤمن بغير (المنفعة) عقيدة تستقر في وعي الإنسان، وتحدد مواقفه، وتوجه سلوكه.

وكما أنّ (الرقم) لا لون ولا جنس ولا انتماء له، وإنما هو قيمة اعتبارية مجردة، كذا ينبغي أن يكون الإنسان في مبدأ حضارة (الأشياء). والإنسان الرقم ذو القيمة الاعتبارية المجردة، التي ترمز إلى (الكم السلعي)، والذي يستمد قيمته المطلقة من موقعه في متتالية الأرقام؛ هو الغول الذي يتهدد إنسانية الإنسان: جوهره وانتماءه، وغاية وجوده، وعلاقاته وأنماط سلوكه. والخطير في هذا (الغول) أنه ليس عدواً خارجياً، ولا هو متحيزاً في جهة، ولا قادماً منها، إنما هو استجابة لنهمة غريزية غافية في أعماق الإنسان، طالما قيّدها الدين، وهذبتها الحضارة. ونهمة غريزية كهذه، لا تتغول على أمة دون أمة، ولا على شعب دون آخر، إنما تتغول على إنسانية الإنسان حيثما كان، تتغول على أشواق الروح، وسمو النفس، كما على كل خيّر وجميل في حياة الناس.

في مشروعنا الحضاري، نحمل (الهوية الحضارية)، بعيداً عن روح التقوقع (القومي) أو (العرقي) أو (العقائدي) بالمعنى الضيق المحدود، ونتقدم بها حصناً ونقطة إسناد إنساني لحماية إنسانية الإنسان، المهدَّد الأول في صراع الحضارات.

(هويتنا الحضارية) ليست قميصاً ورثناه عن آبائنا نحرص عليه، مهما ضاق أو قصر، وإنما هي حصن مفتوح الأبواب ليأوي إليه كل الخيرين من أبناء البشر، ولينطلق منه أيضاً كل المبدعين، نحو عالم يؤمن بالله وبالقيم، يؤمن بالرحمة والحب والشعور، يؤمن بما وراء الحس، وما فوق المادة،

عالم لا يهدر قيمة السلعة، ولا يتجافى عنها، ولكنه لا يرفعها حقيقة وحيدة ومطلقة فوق رقاب العالمين.

هويتنا الحضارية، نقطة إسناد متقدمة، في معركة الإنسانية، ضد غول (رأس المال) وقيمه التي تدور حول (أنا) تكرس فيها كل فجور النفس الإنسانية، وغاب عنها تقواها. إنّ مشروعنا الحضاري القائم أصلاً على إحياء (البعد الرسالي) في نفس الإنسان الفرد، لينطلق من موقف إنساني منفتح، يرفع بين يديه شعار ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] ومع ذلك، ومع هذا الانفتاح على العالمين ليلجوا الحصن الإنساني، ولينطلقوا من نقطة الإسناد المتقدمة، يبقى للأمة التي حملت الرسالة جيلاً بعد جيل. خصوصيتها، في رص الصف، وبناء الموقف، والذود عن إنسانية الإنسان، وكرامته، وجوهر وجوده.

وفي ميدان معركة مكشوف، يتركز الجهد الحضاري في أعماق الذات، ويمتد إلى آفاق قرية صغيرة، كان يطلق عليها (العالم). في هذا السياق لا بدّ من خوض معركة داخلية، تعيد تقويم منظومة القيم الإنسانية السائدة في مجتمعاتنا، والمتسربة إلينا من عصور الوهن والضعف، تحت تأثير عوامل: سياسية وثقافية منحرفة أو مغلوطة، والمتسربلة بسرابيل الدين تارة، وبالفضائل القومية أو الوطنية تارات أخرى.

وبالعودة المباشرة إلى منظومة القيم السائدة في مجتمعاتنا، والتي تمثلها المواقف وأنماط السلوك، كما يمثلها محفوظ التراث الشعبي، سنجد مجموعة من القيم السلبية المدمرة، التي شاركت في صنع حاضرنا بكل آلامه ومآسيه.

إنّ الروح السلبية وتزيين العزلة، والانصراف عن الاهتمام بالشأن العام، والقناعة التي عنت الرضى بالدون، والتواكل الذي شوّه معنى التوكل، و(القدرية)[1] التي تُرجمت إلى حالات من العجز والاستسلام لأمر لم يأت به الإسلام، والتعصب والانغلاق واحتكار الصواب، وإغلاق أبواب التفكير والاجتهاد، والخنوع والسكوت على الضيم، والخضوع لأشكال الاستبداد، وممارسته على الآخرين، وغمط المرأة الكثير من حقوقها الشرعية، والتجاوز على كينونتها الإنسانية. إنّ تتبع كل أولئك بالعلاج؛ سيكون أول الطريق إلى بناء الشخصية (الرسالية) الحاملة لعبء المشروع الحضاري، في بعديه: الوطني والإنساني.

لقد كانت هذه الرؤية التأسيسية في إطارها العام، واضحة أمام حملة المشروع الحضاري الإسلامي منذ وقت مبكر، فلقد ركز الإمام البنا . رحمه الله تعالى . مشروعه الإصلاحي في دوائره اللولبية المتتالية: (الفرد المسلم) (الأسرة المسلمة) (المجتمع المسلم) (الدولة المسلمة)، وأخذ على

---

[1] لا نستخدم القدرية بالمعنى الكلامي الذي يعني نفي القدر.

عاتقه هو وإخوانه، أن يعملوا في قاع المجتمع. فكان جزاؤه وجزاء إخوانه ما هو معروف. وظلت الأمة في تيه البحث عن الذات، بين واقع موروث اختلط حابله بنابله، ومستورد غير موثوق يثير الحفيظة والريبة، ويدفع مع البهر إلى الانزلاق، ومع الخوف إلى الانغلاق.

أبعاد الهوية الحضارية:

١- **الاعتزاز بالانتماء**، وهو شعور نفسي ينشأ، لا عن كبر أو بطر أو غمط للآخرين، وإنما عن إدراك حقيقي لأبعاد الدور الذي رشح له إنسان أمتنا، بمفهومه العقائدي والفكري، وطبيعة (المنهج) أو (الرسالة) التي تتقدم بها للعالمين.

إنّ حالة التخلف، والهزائم المتتابعة، وإصرار الكثير من المفكرين على جلد الذات، تحت عناوين (الموضوعية) و(المنهجية) قد أورثت أبناء الأمة، ولاسيما جيل الشباب فيها، ذلة وانكساراً وإحباطاً ووهناً، حتى غدت الأمة عند كثير من أبنائها (مَثَلَ السَّوء)، دعاوى يؤيدها واقع زور شهوده، فهؤلاء الذين صنعوا ويصنعون هوان الأمة وهزائمها، ويستديمون ليل نكبتها ليسوا منها إلا في (جلد. ولسان).

٢- **البعد (الرسالي) العام**، الذي نُصرّ من خلاله، على أنْ نجعل للإنسان من بني أمتنا، وجوداً خارج الوجود البيولوجي، واهتماماً فوق اهتمامات الوظائف الفيزيولوجية.

٣- **الشعور بالتميز**، شعوراً لا يصاحبه كبر أو استعلاء، وإنما تضحية وإشفاق وإيثار، إذ أنّ كمال الوجود الإنساني إنما يتحقق في عطف كبير على صغير، وعون قوي لضعيف، وسعي قادر على كَلّ، ورعاية صاحب فضل وسؤدد لسواد الناس.

وفي إطار هذه الأبعاد الثلاثة تتحدد المعالم العامة للهوية الحضارية للفرد الذي يُركن عليه في حمل عبء مشروع حضاري في إطاره الإنساني العام أيضاً.

وفي ثنايا هذا الإطار، ستكون هناك جملة من مفردات الهوية الحضارية لإنسان أمتنا ووطننا، نذكر بعضاً منها في هذا السياق، وسيكون أعلاها الإيمان بالله، رب العالمين، الرحمن الرحيم، وسيكون (موضوع الرسالة) عنواناً لأمة الرسالة، ولكل فرد من أبنائها، ومن هذا الإيمان الصافي والصادق بكل أركانه تنبع كل الفضائل، وتتساقط تلقائياً جميع العيوب والنقائص.

وسيردف الإيمانَ (العملُ الصالح) ببعديه المعنوي والمادي: الإحسان والإتقان، والعلمُ القائم على أسس ومناهج مما ينفع الناس. فكم عانت أمتنا من التهويم في المجردات، ومن الجدل فيما لا ينبني عليه عمل.

ومن المفردات الأساسية، في الهوية الحضارية لإنسان أمتنا، الحرية المرتبطة بالمسئولية، والمستندة على إرادة قوية، تعصم من الانجرار وراء شهوات النفس وأهواء أهل الباطل. كما تمثل

الإرادة الحازمة المعبر الأساسي للإنجاز، وذلك لإخراج الأماني والأحلام بالإرادة والتصميم إلى عالم الواقع ليستفيد منها صاحبها ويفيد.

إنّ الانفتاح (النفسي) و(العقلي)، وتتبع الحكمة من حيث جاءت، سيكون الدواء الشافي لكثير من حالات الجهل والانغلاق والتعصب، التي أورثت استبداداً في عالم الفكر والشعور، لا تقل سلبية عن الاستبداد في عالم (السياسية)، وفي قول سلفنا (رأيي صواب يحتمل الخطأ) نوافذ للتربية العملية التي تترك في نفسية الفرد فسحة للاستماع للآخر، واستعداداً للحوار الإيجابي، الذي يبحث دائماً عن الحق ويدور في فلكه، دون أن يفكر في الانتصار للذات.

وسيأخذ الحرص على (الإبداع) والإصرار عليه، مكانته في مفردات الهوية الحضارية لإنسان أمتنا، الإبداع في ميادين الفكر والفن والأدب كما في ميادين المادة والعلوم الطبيعية.

إنّ منهجية التقليد المباشر، سواء لمن سلف من أجيال الأمة، أو لما يأتي من وراء البحار، هو الذي أصاب الأمة بالشلل العام، وجعل أبناءها مرتهنين، إمّا لرؤى تاريخية يُطلَب إنجاز ما يضاهيها، لا مجرد تأملها والانفعال بها، أو اللهاث وراء ما ينجزه الآخرون بخيره وشره، بما يحمد منه أو يعاب.

ستشكل (الأخلاق الجماعية)، وهذا عنوان جامع لكثير من الخلال، بعداً أساسياً من أبعاد الهوية الحضارية لإنسان مشروعنا الحضاري، فلطالما أدت الروح الفردية بأبعادها كافة، إلى حرمان الأمة من ثمرات التعاون وبركته.

إن التأسيس لهذا البعد في حياة الفرد، ينبغي أن يبدأ منذ فترة التربية الأولى، وفي إعداد الفرد ليكون عضواً في فريق، وفي المركب الجماعي الواحد تبرز كل معاني: التعاون، والإصرار على الإنجاز، والاتحاد في وجه العواصف، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والأخذ على يد المسيء، واحتمال ضعف الضعيف، والتعويض عن تقصير المقصر.

هذه رؤوس المفردات العامة، التي ينبغي التأكيد عليها، في رسم ملامح الهوية الحضارية لإنسان الأمة، وهي ليست مفردات خصوصية، وإنما متطلبات عامة لمرحلة خاصة من تاريخنا، يعتبر بناء الفرد فيها، وأخذه بها، مدخلاً أساسياً لميادين الإنجاز الحضاري.

واجب أمتنا الحضاري:

❋ الاستفادة من التطورات التقنية من أجل تبليغ رسالتنا الإسلامية الحضارية الخالدة.

❋ إعداد مشروع ثقافي للدول الإسلامية يقوم على تعميق الصلة بين الواقع المعاصر وتراث الأمة الحضاري.

❋ العناية بالقرآن الكريم والثقافة الإسلامية للحفاظ على الهوية الإسلامية.

❋صياغة مشروع إعلامي إيماني.

❋استثمار المنجزات العلمية وشبكة الاتصال العالمي أحسن استثمار.

❋تحديث وسائل التعليم للاستفادة من الطاقة البشرية.

❋العمل لتصحيح مفهوم عالمية الإسلام وأنه دعوة موجهة لكافة البشر.

❋الاهتمام بالأسرة لأنها المصنع الأساسي للأجيال وتكوينها الثقافي.

❋توظيف الأموال والثروات في مؤسسات إنتاجية.

❋تحقق الاستقلال الاقتصادي.

❋إنشاء سوق عربية مشتركة.

❋الوعي التام للقيم الوافدة المرفوضة شرعاً والعمل على تدارك أخطارها.

❋الوعي التام بالتطور التكنولوجي لتتبع نوافذ الاختراق لأمننا الثقافي.

❋التعاون التام بين مؤسسات المجتمع المدني والحكومات لمواجهة الصعوبات.

❋وضع استراتيجية وخطط واقعية لوحدة المسلمين في ظل راية واحدة.

❋الحفاظ على مبادئنا ومقاصد شريعتنا وأصولها وثوابتها والعض عليها بالنواجذ.

❋الأخذ بكل ما هو نافع لنا نفعاً حقيقياً ولا يتعارض مع ديننا الحنيف.

❋العناية بثرواتنا واقتصادنا.

❋العناية التامة بالعلوم الدينية والدنيوية.

❋إبراز معالم الهوية الإسلامية.

❋اكتساب الأسس والأدوات اللازمة لممارسة التحديث ودخول عصر العلم والثقافة (دخول الذوات الفاعلة المستقلة) وليس دخول الموضوعات المنفعلة المسيرة.

❋تعزيز الاجتهاد والتجديد في القصة لنتمكن من استيعاب المستجدات.

❋إقامة المشروعات المشتركة والعمل على زيادة التكامل الإنتاجي فيما بينها.

❋التوسع في إنشاء الشركات المشتركة في مجالات النقل البري والبحري والجوي.

❋التعاون النقدي الإقليمي.

❋التعاون في مجالات البحث العلمي والتعليم وتبادل المعرفة.

❋التشاور والتعاون لتوحيد الصفوف والوصول لمواقف مشتركة تجاه المشكلات الاقتصادية العالمية وتجاه عمليات التفاوض في المحافل والمنتديات الدولية.

❋ترشيد الإنفاق وزيادة موارد الدولة.

❋مكافحة التضخم المحلي من خلال السياسات النقدية والمالية المناسبة.

❋مواجهة أزمة المديونية الخارجية.

❋دعم الإصلاحات الاقتصادية في الأقطار الإسلامية وتأهيل الاقتصاد الإسلامي للدخول في القرن الحادي والعشرين ضمن التكتلات الاقتصادية العالمية العملاقة.

❋قيام سوق إسلامي لرأس المال وحركته في إطار الأقطار الإسلامية، ووضع إطار قانوني وتشريعات جديدة تتلاءم مع المتغيرات الحاصلة في الأسواق العالمية.

❋حرية انتقال عناصر الإنتاج وقوة العمل والأشخاص ورأس المال فيما بين الأقطار الإسلامية إضافة إلى حرية التملك والإرث.

❋توحيد السياسات النقدية والمالية والجمركية والنقل والترانزيت والتجارة الخارجية.

❋خلق مرصد إسلامي اقتصادي اجتماعي مهمته تقييم واقتراح السياسات الاقتصادية الإسلامية، وتحديد الاختلافات وعوامل تلافيها، وهذا يتطلب تشكيل لجان استشارية تضم الخبراء الإسلاميين، وتكلف بالتفكير في السياسات الاقتصادية الإسلامية في ظل المتغيرات الدولية.

❋لابدّ من استشراف آفاق المستقبل ووضع تصور مستقبلي لموقع الأقطار الإسلامية في المحيط الإقليمي والدولي، وتصور مفهوم محدد للأمن الإسلامي، وتوقع مدى إمكانية قيام السوق الإسلامية المشتركة، وما يرتبط بها من قضايا الحماية والدعم والمنافسة والحرية الاقتصادية.

❋وضع استراتيجية بناء القدرة التنافسية والتي تعد من أهم عناصر الإستراتيجية العليا للتنمية الشاملة في الأقطار الإسلامية.

❋تنمية الموارد البشرية على مستوى الأقطار الإسلامية والاكتفاء الذاتي بها.